وزارة الثقافة والإعلام
مديرية الثقافة العامة

سلسلة القصة والمسرحية
٩

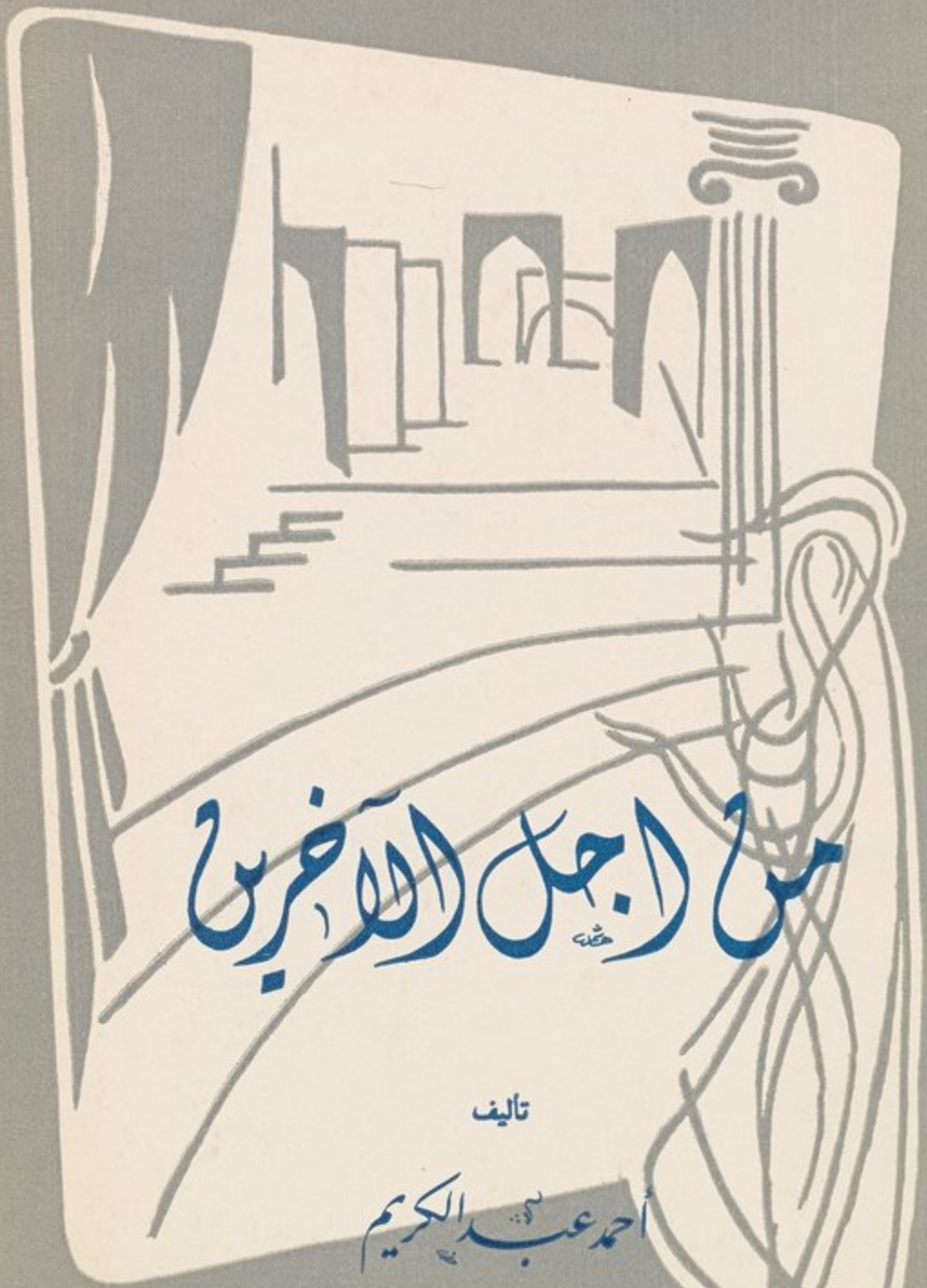

من أجل الآخرين

تأليف

أحمد عبد الكريم

من اجل ألآخرين

وزارة الثقافة والإعلام
مديرية الثقافة العامة

سلسلة القصة والمسرحية
٩

هدية
المكتبة المركزية
لجامعة بغداد

من أجل الآخرين

تأليف

أحمد عبد الكريم

PJ
7677
.I7
9-10

المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
دار الجمهورية
١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م

عَمّو غَفّورى

لست اذكر كم كان عددنا على وجه التحديد .. بيد ان ما اذكره جيدا هو اننا كنا قد تعودنا على أن يكون كل منا أول من يخرج من داره في ساعة مبكرة من صباح كل يوم لنلتف حول بعضنا البعض ونلعب ونتخاصم في صخب وضجيج كثيرا ما كان يضيق بهما كناس محلتنا فيقول لنا وهو يبصق على الارض ويمسح بكم ثوبه البالي ما تراكم على وجهه وشفتيه من تراب يتصاعد في الفضاء كلما مست مكنسته صفحة الارض المكتظة بالاوساخ والاتربة .

ـ ولكم آخر ماعدكم مهجوم ؟ شصار من الغبشة دتطاردون بالدرابين چنكم مسودنين ؟

ولم نكن بطبيعة الحال نلقي بالا الى مايقول ، لاننا كثيرا ماتعودنا أن نسمع منه مثل هذا الكلام في صباح كل يوم .. ولان عمو غفوري هو الذي كان يتولى مهمة الدفاع عنا ، في كثير من الاحايين ، ويتصدى للكناس المتذمر من ضجيجنا ليقول له بحدة وانفعال :

ـ يابه شتريد منهم ؟ متخلي الولد يتونسون ..

ولم يكن هذا الدفاع ، بطبيعة الحال ، هو الذي جعلنا نميل ، شيئا فشيئا ، الى عمو غفوري لان هذا الميل بدأ ينشأ عندنا ويحتل مشاعرنا مذ ألفنا رؤيته وهو يجلس ، منذ الصباح الباكر حتى المساء في منعطف محلتنا يضع الى جانبه زنبيل (اذرة الشام) وتنتصب أمامه (صينية) نقادم عليها العهد ـ مفروشة بقطعة متهرئة من جريدة مصفرة اللون صفت فوقها أنواع من الحلويات الرخيصة تستقر فوق (تنكة) مصدأة تنتشر في

جوانبها الاربع ثقوب لم يشأ عمو غفوري ان يتركها وشأنها فعمد الى حشوها بقطع مطوية من جرائد قديمة .

ـ كثيرا ما كان يمد اليها اصابعه الضخمة ليسحب منها واحدة ويلف ما يبيعه لنا بعد ان يحذرنا بنبرة يغلب عليها حنان أبوي فياض وهو يقول لنا :

ـ ديروا بالكم ولدي لدمرون هدومكم ..

ولم يكن عمو غفوري كالاخرين الذين الفنا رؤيتهم كل يوم ـ فقد شعرنا منذ الوهلة الاولى التي تعرفنا فيها عليه ، بان فيه صفات ومزايا تميزه عن الاخرين .. كان بدينا الى حد قد يبلغ الافراط .. ذا وجه أحمر ممتلىء وعينين صغيرتين زرقاوين .. كلما دقق على واحد منا تراقصت في أعماقهما المتلألئة لمحة خابية من غبطة موؤدة .

ولئن كنا ، في بداية الامر ، نتساءل عما جعل وجه عمو غفوري يبدو على هذا النحو من الاحمرار في الوقت الذي كانت وجوه ابائنا وسواهم تبدو سمراء أو صفراء .. فاننا لم نعد ، بعدئذ ، نعير اهتماما لذلك ـ لاننا كنا قد اعتدنا على رؤية ذلك أولا ولان واحدا من رفاقنا قال بانه سمع من أمه بأن ذلك الاحمرار يعود الى كون والدة عمو غفوري (گرجية) تزوج بها أبوه قبل (السفربر) بأعوام كثيرة . ونحن وان لم نستطع ان ندرك ما عسى أن تعنيه هذه الالفاظ بيد اننا استطعنا أن ندرك بان هناك ثمة مبرر لذلك الاحمرار . وهذا هو ما أرضى فينا حب الاستطلاع .

وكنا قد أعتدناان نرى عمو غفوري ملازما لهذا المنعطف من محلتنا منذ أن نقلنا ميدان لهونا ولعبنا من البيت الى الطريق .

ومنذ اللحظة التي الفنا فيها رؤية عمو غفوري وهو يفترش ذلك المنعطف بدأنا نحس برغبة مبهمة تسيطر على مشاعرنا وتسوقنا الى ان نلهو ونلعب على مقربة منه .. وكأنما كان ذلك يزيد من غبطتنا ومرحنا ، لا سيما وانه لم يبد في يوم من الايام تبرما او تأففا من ذلك ، ولم ينفره

ضجيجنا ولم يتعبه صراخنا المتواصل وعراكنا المستديم .. بل كان البشر يطفح على صفحة وجهه الممتلىء الاحمر كلما رآنا نمعن في اللعب والمرح ونملأ الزقاق بالصخب والضجيج المتواصلين .. وكانت سحابة من الالم تخيم على ذلك الوجه اذا ما حدث واصيب احدنا بأذى مفاجيء او بمكروه .. وكثيرا ماكان ينتزع جسمه الضخم الثقيل من خلف صينيته العتيدة ليرفع ، من يقع منا على الارض ويمسح من عينه الدمـــوع أو ليضمد ما يكون قد أصابه من جرح .. بخرقة ما زلت أذكر بانه كان يحمل ، لسبب من الاسباب ، مجموعة منها في جيب دشداشته دوما . وكثيرا ما كان يتدخل بيننا ، وكأنه واحد مثلنا ، ليشاركنا مشاكلنا .. أو ينصب من نفسه حكما فينا يود ، بحنان ابوي طاغ ، ان يحسم ما يقع بيننا من نزاع أو خلاف .

وكنا قد سمعنا بان عمو غفوري ليس من ابناء بلدتنا .. بل انه نزح اليها من بلدة اخرى بعد ان فقد زوجته وابنه الصغير في حادث أنقلاب سيارة .. وانه يعيش ، منذ اعوام ، عيشة وحدة وانفراد يستبدان بحياته .. ويتركانه يستعيد بألم صامت مكتوم ، صورة ما حدث لزوجته الوفية ولفلذة كبده الذي لم يتح له ان يرى غيره في الحياة .. وان صحته ، منذ ان حلت به تلك الفاجعة ، اصبحت على غير ما يرام .. وان لذلك دخلا في ترهل جسمه وفي مايعانيه من الام خفية لم يكن ليكشف عنها لاحد في يوم من الايام .

وفي كل حرف مما سمعناه وجدنا عاملا جديدا يدفعنا ، دون ان نحس او ندرك ، الى التقرب الى عمو غفوري والتعلق به .

وهكذا اخذت أواصر الصداقة تتوثق بيننا وبينه حتى بات كل منا يشعر في قرارة نفسه بانه مغمور بفيض من حنان لا حدود له ، ويحس دونما تهيب أو توجس ، بان عمو غفوري هو (أبوه الثاني) .

وأدركت أمهاتنا عمق العلاقة التي باتت تربط بيننا وبين عمو غفوري فصرن يهرعن اليه كلما أردن أن يقنعننا بما يدور في مخيلتهن أو اردن

أن يرشدنا الى طريق الصواب ويجعلنا نقلع عن مشاكستهن ونكون مطيعين لهن .. أو كلما شئن ان يلقين علينا نفحا وارشادا كن يعلمن بانه لن يلقى عندنا اذنا صاغية .

وذات صباح خرجنا من بيوتنا كعادتنا في صباح كل يوم ، ونحن نطبق أكفنا على ماحصلنا من ذوينا من (العانات) و (العشرات) .. لا تدور في أذهاننا غير صورة عمو غفوري الذي سيستقبلنا بوجهه الاحمر الممتلىء وعينيه الزرقاوين الوديعتين .. وعلى شفتيه ابتسامة صافية تعكس كل ما في اعماقه من حب وحنان .

وكم كانت دهشتنا بالغة عندما لم نجد عمو غفوري في المكان الذي اعتاد ان يحتله كل يوم ، لقد بدأ الامر خطيرا .. وخطيرا جدا بالنسبة لنا ، نحن أولاده الصغار ، كما كان يحلو له أن يسمينا دوما .

وتلفت كل منا نحو الاخر يتساءل في حيرة وصمت عما يمكن ان يكون قد حصل لعمو غفوري حتى اعاقه عن الحضور الى مكانه المألوف لاول مرة في حياته .. اعني في حياتنا .. بيد ان الحيرة كانت قد داهمتنا وعقدت السننا فلم نقو على التفوه بشيء ولم نجرؤ على النطق بكلمة ولم يتيسر لاي واحد منا ان يظفر بما يمكن ان يشفي غليله أو يطمئن باله ..!

وبعد ساعة أو ساعتين قالوا لنا بان عمو غفوري مات.. !!

عمو غفوري .. مات ؟؟

وماذا عساها تعني كلمة (الموت) هذه بالضبط .. ياترى ..؟

ان عقولنا الصغيرة الطرية لم تستطع ، آنذاك ، ان تحدد ما يمكن ان يحيط بهذه الكلمة من مدلول دقيق .. بيد ان ما استطعنا ان نتلمسه بمشاعرنا واحاسيسنا هو ان عمو غفوري لن يعود الى محلنا بعد اليوم وأننا لن نراه في مكانه الذي الفنا ان نراه فيه دوما ..

كانت تلك مفاجأة غير سارة لنا طبعا .. وجثم على قلوبنا الصغيرة شيء مبهم ثقيل وطار من رؤوسنا المرح فلم تبق فينا رغبة للهو أو لعب

.. وانتحى كل منا ركنا من الزقاق الضيق الطويل .. هذا يرسم على الارض خطوطا مضطربة بقطعة من حجارة كانت تتناثر هنا وهناك .. وذاك ينكث الارض بعودة صغيرة التقطها من وسط كومة الزبالة الملقاة في منتصف الزقاق .. وكلنا يلتفت بين الفينة والاخرى الى المكان الذي اعتاد ان يفترشه عمو غفوري كل يوم من الصباح حتى المساء .. لعله يكون قد عاد اليه من جديد .. ولكننا سرعان ما نعود الى ماكنا عليه من الوجوم والتأمل .. لاننا كنا ندرك بمشاعرنا أيضا ـ بان الذي يموت .. لن يعود ابدا ..

وهكذا قدر لنا ان نصاب ، لاول مرة في حياتنا ، بصدمة مذهلة ـ وأن نمر بتجربة قاسية ـ لاننا كنا نحس باننا فقدنا شخصا كان قريبا الى نفوسنا محببا الى قلوبنا الصغيرة .. لا تكاد علاقتنا به تختلف عن علاقة أي واحد منا بالاخر .

وهكذا وجدنا انفسنا نستسلم لحزن عميق .. ويطغي علينا شعور من يكون قد فقد شيئا عزيزا .. وهكذا بدأنا نشعر بانفسنا وكأن كلاً منا أصبح له أب واحد بعد ان فقدنا ذلك الاب الاخر الذي كان يغمرنا بعطف لم نكن نجد له مثيلا حتى عند آبائنا وامهاتنا .

ولكن فقدان عمو غفوري لم يكن ليعني ، بالمرة ، بأن صورته ستمحى من أذهاننا واننا سوف ننساه أو ننسى ذكره في يوم من الايام .. هذا لايمكن ان يحدث ابدا .. عمو غفوري يعيش بيننا .. وذكره لم يكن ليغرب عن بالنا .. صورته الكبيرة الضخمة ترتسم ، بشكل هائل، في مخيلتنا دوما .. وتترك قلوبنا الصغيرة يعتصرها الهم ويمزقها الالم .. وأجفاننا الناعمة تبللها الدموع ..

وكان ينبغي علينا ان نفعل شيئا يعرب عن تعلقنا بالقلب الكبير الذي فقدناه .. وذات يوم ، ونحن نجلس في الموضع الذي كان عمو غفوري قد اعتاد الجلوس فيه .. وصورته الكبيرة تقفز من رأس الى رأس ، وذكريات عطفه الفياض تنتقل من شفة الى شفة .. وجدنا انفسنا متهيئين

لزيارة قبره .. هكذا مرة واحدة .. وبلا مقدمات .. وبدافع من الوفاء الذي كنا نحس باننا مدينون به اليه .

واحترنا فيمن عسى يدلنا على القبر .. لكن حيرتنا لم تطل .. فقد تطوع واحد منا ، وكان اكثرنا نشاطا وحركة ، بأخذ هذه المهمة على عاتقه .. لانه كان قد اتيح له ان يكون حاضرا في المقبرة يوم ان تم وضع عمو غفوري تحت اكوام التراب .

ولم نحجم عن تنفيذ الفكرة لحظة واحدة .. وبعد اقل من نصف ساعة ، وفي غفلة من امهاتنا وجدنا انفسنا نحيط بموضع يستقر في اعماقه ذلك المخلوق الطيب الذي كنا اولاده في يوم من الايام .

وخيم علينا احساس مفاجيء بالخشوع والرهبة ..

وكما كان عمو غفوري يعيش حياتـــه ، داخل حصن مهجور تعشعش فوق جدرانه احساسات مدمرة بالحرمان والغربة فقد كان بعد موته يستقر داخل حفرة لاينم عنها غير كومة من تراب متيبس تتخلل شقوقه حبات من الحصى والحجارة الصغيرة .. ملقاة بأهمال فوق بقعة منعزلة عن قبور شواهدها البيضاء وحجارتها اللامعة تتحدث عن ترف تمتد جذوره عبر حياة منعمة .. حتى أعماق القبور .. وعصر قلوبنا شعور بالوحشة والكآبة وتربعنا حول القبر الموحش المعزول وصدورنا يثقلها شعور مبهم من الحزن والكآبة .. وفوق وجوهنا الصغيرة تخيم مسحه عميقة من الالم والهم .. وقفز اصغرنا فوق كومة التراب التي يستقر تحتها عمو غفوري .. نهره احدنا صارخا في وجهه ..

ـ ولك هالنوبة تدوس على گبر عمو غفوري ..

ونفذ الاستنكار الى اعماق قلوبنا .. فلقى فيـــه صدى عميقا .. واستجبنا لـه بحركة من رؤوسنا وبنظرات صامتة من عيوننا الحزينة المكتئبة . كان الاستنكار في محله .. فكيف يجرأ شخص أن يطأ بقدميه قبر عمو غفوري .. وقد تيبس التراب الملقى فوقه باهمال .. تواً ..؟ ذلك أمر يبدو حدوثه من المحال .. لاسيما وان في أعماق كل منا

شعور خفي مستبهم يوحي لنا بان الموضع الذي يستقر في اعماقه قبر عمو غفوري أشبه مايكون ببقعة مقدسة لا تصح ان توطأ بالاقدام .. حتى ولو كانت اقدام الصغار الذين احبهم واحبوه ..

وهمس أحدنا ، وكان قد انتهى من تقليب بصره بين ارجاء المقبرة الكبيرة ..

ـ أشو گبر عمو غفوري متكتر من دون كل الگبور ..!

ومع ان عيوننا لم تخطىء ذلك مند الوهلة الاولى التي وجدنا أنفسنا فيها نحيط بالقبر المهمل الصغير .. الا ان الملاحظة مست مشاعرنا الدفينة واحدثت هزة الم ممزق فيها .. فكنا كمن يصحو على حقيقة لم يفطن الى مرارتها .. ويواجه حقيقة مرعبة لم ينتبه اليها من قبل ..

على أن واحدا منا هو الذي تصدى للجواب على ذلك السؤال .. فقال بصوت تغلب عليها رنة أس طفولية !

ـ قابل انت غشيم ومتعرف عمو غفوري ..

وخيم علينا صمت كئيب .. ووددنا لو أن السؤال لم يطرح .. وغاص كل منا في أعماق نفسه من جديد .. يستعيد جانبا من ذكريات أيام لن تعود .. وطفقت نظراتنا تلتفت حول القبر المهمل الصغير حينا وتدور في أرجاء المقبرة الواسعة الكبيرة حينا آخر .. وتضاعف شعورنا بالالم والوحشة والاكتئاب عندما اتيح لنا ان نلاحظ بأنه معظم القبور تستقر تحت اغصان تحنو عليها باغصانها الممتدة الوارفة الظلال بينما كان قبر عمو غفوري بين القبور التي تستقر في العراء ..

ولم نشعر بالوقت وهو يمر .. ولم نلتفت الى الشمس وهي توشك على الانحدار نحو الافق .. ولم ننتبه للظلام وهو يوشك أن يتسلل الى المقبرة .. فيزيد من شعورنا بالرهبة والوحشة والكآبة .. وعندما شعرنا بذلك أدركنا بانه بات علينا ان نسارع في العودة الى بيوتنا .

وفي الحال بدأنا ننتزع قلوبنا من حول القبر انتزاعا .. ورحنا نودع عمو غفوري بصمت واكتئاب ومرارة .. ونلقي على الموضع المقفر

المنعزل نظـرة حزن وأسى .. وفي الوقت نفسه كنـا نسائل أنفسـنا ، والدموع تحتبس في مآقينا ، عما يمكن أن تكون قد حققته هذه الزيارة الحزينة الصامته لعمو غفوري .. من مسرة واغتباط وتتصور الابتسامات الوديعة التي ربما تكون قد ارتسمت فوق شفتيه .. عندما أحس بنـا ونحن نلتف حول قبره المهمل الصغير .. على الرغم من كل ما اشاعه ذلك فينا من أحساس بالحزن والاسى والاكتئاب .

وفي الطريق الى بيوتنا انتبهنا الى أن غيابنا الطويل لابد وان يكون قد أدخل القلق والوسواس الى قلوب امهاتنا .

في تلك الايام التي لن تعود ابدا .. كان عمو غفوري يتـولى حمايتنا ويدخل الطمأنينة على قلوب امهاتنا القلقات .. اذ ما حدث وتغيبنا عن بيوتنا فيخبرهم عن المكان الذي مضينا اليه وعن الوقت الذي سنعود فيه .. لاننا في كل مرة ، كنا نحيطه علما بذلك ..

ولكن الامور تغيرت الان .. فعمو غفوري قد غاب ، الى الابد ، غاب عن الموضع الذي اعتاد ان يفترشه كل يوم من الفجر حتى المساء ، فحرمنا من العطف الذي كان يحيطنا به .. كما اعدمنا ذلك العون الذي كان يحمينا من امهاتنا ويقينا من غضبهن .. اذا ما حدث وطال غيابنا عن المحلة .. وسقط هم جديد فوق قلوبنا الصغيرة الكئيبة .. وداهمنا شعور بالتخوف من بطش ابائنا بنا عندما تتطوع امهاتنا بنقل خبر تغيبنا الطويل اليهم ..

وكان أول شيء نعمله في اليوم التالي .. هو الخروج ، في ساعة مبكرة ، الى الزقاق .. لكي نتحلق ، في الموضع الذي كان يفترشـه عمو غفوري كل يوم ، من الصباح حتى المساء ، ونبدأ من جديد رحلتنا الحزينة مع الاحاسيس الكئيبة الممزقة التي كانت كل ما احتفظنا به من ذلك الانسان ذي القلب الكبير ..

غدًا.. تتمّ المعجزة

الظلام يخيم على الزقاق الضيق المتفرع من شارع صغير في حي من الاحياء القديمة في الكاظمية ، والسكون العميق يطبق على كل معالم الحياة فيه ، وأبواب الدور ونوافذها مغلقة وكأنها لاتضم احدا خلفها.. وعند المنعطف يلوح مصباح صغير يخيل لمن يراه بانه عين متعبة تغالب النعاس .. يبعث خيوطا من النور .. تحاول ان تبدد اسداف الظلام فلا تفلح ، فتتساقط في اعياء على نافذة لا تعلو كثيرا عن الارض .. أغلب الظن انها الوحيدة التي كانت مفتوحة في تلك الاونة من الليل .

وخلف تلك النافذة جلست نورية ورأسها المتعب يستقر في وهن على راحة يديها المبسوطتين على حافة النافذة ، وعيناها الكبيرتان تلتمعان كعيني قطة حائرة ، ترقبان الطريق حينا .. وتعلقان بتلك النوافذ المنتصبة أمامها ، حينا آخر ..

خلف كل نافذة ترقد الان أم .. وزوجة .. امرأةعلى يمينها طفل وعلى شمالها رجل .. أما هي ..؟ فقد كتب عليها أن تكون محرومه مما تنعم به الاخريات .. أين زوجها قاسم الان ؟ تبا لوظيفه المنحوسة التي تحرمها منه .. دوماً .. أية وظيفة هي ؟ مجرد كاتب في معمل للنسيج .. ليس في الامر شيئا .. لو ان عمله هذا لايتطلب منه التغيب عن الدار ليلا بين أسبوع وآخر .. لو أن ذلك لم يعني حرمانها من لذة الدفء الذي تجده مثيلاتها الى جانب ازواجهن دوما وباستمرار .. هن كتب عليها ان تكون محرومة حتىمن هذه النعمة ..

وتتسمر عينا نورية في النافذة المقابلة .. وتنتصب في الظلام صورة أم كمال بجسمها الدحداح المكور .. نورية تشعر نحوها بكره عميق .

فما هو مبعث الكره هذا ..؟ قد يكون ذلك لان ابا كمال يغدق عليها الحب باسراف .. ولانه لايفارقها ليلة واحدة .. وقد يكون لانها أم لاربعة أطفال !!.. هذا يجوز .. ويجوز ذلك ايضا .. كل شيء جائز في هذه الحياة ..

ولكن ثمة في الموضوع ، أمراً آخر .. ان ام كمال قابلة أيضا .. أليس كذلك .. أجل أنها قابلة .. ونورية تسمعها كل يوم تتحدث عن مولود جديد .. تتحدث عن ذلك باسهاب وبصوت عال .. وتسرد كل ما يحدث لها من متاعب ومفارقات .. اثناء عمليات الولادة التي لاتكاد تجد منها مهربا اثناء الليل والنهار ..

ولكن ما ذنب أم كمال في ذلك كله ؟..

ليس الجواب على مثل هذا السؤال بالامر الهين على نورية.. وأهون من ذلك ان توزع كرهها على الجميع .. على جميع الزوجات والامهات؟

وتنتقل نورية ببصرها الى النافذة الاخرى وتبعث من اعماقها حسرة ملتاعة مكتومة ان اديبة ، زوجة سالم .. نقمة هبطت عليها منذ ان حلت بهذه الدار .. انها تكرهها ايضا .. تكرهها أكثر من أي مخلوق آخر في الحياة .

وبين سالم وقاسم أكثر من صلة تمتد جذورها اعواما .. هذا صحيح !! ولكن نورية لا تقيم وزنا لمثل هذه الاعتبارات .. انها تكره اديبة وتكره سالما أيضا ولا تطيق رؤيتهما . ولا تتحمل رؤية العلاقة القديمة القائمة بين زوجها وسالم .. ذلك محال .. وليس في الامكان احتماله .. هذا هو كل ما في الامر .. وهذه هي المسألة كما هي مرسومة في مخيلة نورية ..

وقاسم .. يفضل ان يترك نورية ماضيةفي هواها ولا يملك القدرة على أدخال بصيص من النور الى قلبها المتخبط في ظلمة الهواجس والاوهام .. وهو بدلا من ان يمد لها يده وينفض ما يعلق بذهنها من غبار .. يلقى يده في يدها وعيناه تتبعان الخطوات التي ترفعها دون أن

يتساءل عن الوجهة التي يمضيان اليها .. انه يفعل ذلك استجابة للرغبات التي تداعب احاسيس نورية التي تحس بميل لا يقاوم الى ابعاد الجميع عن زوجها قاسم .. والى الاحتفاظ به بعيدا عن الاخرين .. ليبقى لها دون سواها .. لتكون هي الشخص الوحيد الذي يضطرب في حياته دون الاخرين .. لعلها تستطيع بذلك ان ترضى احاسيسها القلقة المضطربة وتملأ الفراغ الذي يلف حياتها من كل الجوانب والجهات .

وتغوص نورية ببصرها في جوف الظلام حينا من الزمن وكأنها تبحث عن شيء فقد منها منذ عهد بعيد .. فتتراءى لها عبر الظلمة الموحشة صورة من حياتها الماضية .. حياتها التي لا يخامر أحد الشك في أن جوانب عديدة منها قد تغيرت الان .. بل وبدأت تتغير منذ ان ودعت تلك الدار التي أصبحت تحس نحوها بنفور كبير .. دار ابويها المعدمين حيث كانت تحيا ، كما يلوح لها الان ، حياة تفتقر الى كل مايمكن ان يجعل منها حياة جديرة بالاحترام ، فكانت تمضي نهارها وهي تعجن وتخبز وتغسل اواني الطعام وتكنس الدار وتغرف الماء بالسطل لتقذفه في غفلة عن أعين مراقبي البلدية .. الى عرض الطريق .. او تفترش حصيرة بالية ملقاة في زاوية من زوايا الدار لترتق ما تجدد تمزيقه من ثوبها الذي ارسلته لها ، قبل عدة اشهر ، جارتهم زوجة عبدالرحيم ، تاجر الالبسة المستعملة .. او تختلي الى نفسها في ركن من السطح الذي لم يكن يخلو من اكوام من الحجارة او طبقات متراكمة من التراب .. تنظر بلهفة وتشوق الى (التيغة) التي تنتصب بينها وبين قاسم ، لعلها ترى تلك الاشارة التي تعودت ان تراها منه كلما عاد من عمله .. كان قلبها يخفق لرؤية تلك العصا الطويلة وهي تبرز من خلف الجدار وعلى رأسها خرقة ملفوفة كالعادة .. لا تلبث ان تهتز هزات متتالية كانها ترقص .. فيرقص معها قلب نورية .. يرقص فرحا لليوم المنتظر .. حيث يفي قاسم بوعده الذي قطعه لها منذ امد بعيد .

وتدور عجلة الزمن .. ويحل ذلك اليوم الذى يفي فيه قاسم بالوعد

.. وتودع نورية ذلك البيت الذي غذاها بالامال المعسولة والاحـــلام المستعذبة دون ان يهيأ لها حياة كحياة الاخريات ممن تعرف او لاتعرف .. ليستقبلها بيت آخر .. أفرد قاسم لها فيه محلا كبيرا الى جانبه .. اعرابا لها عن حبه اياها .. ولكن ، هل تكن هى الاخرى ، حبا لقاسم كالحب الذي يكنه لها هو ..؟

قد يكون ذلك حقيقة واقعة لايرقى اليها الشك ... كثير مـن الزوجات يحببن ازواجهن حبا لاغبار عليه .. غير ان الـــذي لايرقى اليه الشـك أيضـا .. هو كون نورية تحب شيئاً آخر أكثر من حبهـا لقاسم - او تحب قاسما من أجله على أقل تقدير .. اليس كذلك .. أجل ان ذلك صحيح وصحيح جدا ..

انها تحب ان تصبح أما تريد ان تمتلك طفلا .. ولم يكن ماتريده نورية رغبة عابرة أو هوسا طارئا .. انها تريد ذلك وتطلبه بكل عنف وقوة وضراوة .. وارادتها هذه عاصفة بدأت تزمجر في اعماقها منـذ ذلك اليوم الذي راودها فيه شعور جديد بالحياة .. وغير انها كانت في تلك الايام تحس بنشوة غامرة لمجرد الاستسلام لمثل هذا الحلم الجميل .. أما اليوم ؟

وتنتفض نورية عندما ترامى اليها أصوات قريبة تتبعها طرقات تتوالى على دار أم كمال .. ويتكرر الطرق .. وتطل نورية برأسها على الطريق .. وتعرف ماوراء هذه الطرقات فتتعالى في أعماقها طرقات أعنف وأشد .. وتمتد يد في الظلام لتعتصر قلبها المثقل بالهموم ويداعب اذنيها كلام طويل لا يعلق بذهنها منه غير هذه العبارة ..

- أم كمال .. عيني بالعجل .. ترى بيها وجع من المغرب ..

وتغمض نورية عينيها بألم وتتنحى عن النافذة قليلا .. وتسند رأسها الى الجدار .. لماذا قدر لها ان لا تكون واحدة من اولئك المحظوظات ؟ لماذا لم يقدر لها ان تكون هي الاخرى ... أما ..؟

أن قلقها يزداد يوما بعد يوم .. والهم يلتصق بقلبها بقوة واصرار

.. وحياتها التي تعيشها اليوم ـ لا ترى فيها سوى جحيم .. جحيم لا يمكن ان يطاق ..

كانت الخمسة عشر شهرا التي أمضتها مع قاسم في دار أهله .. حافلة بالالم والحزن .. كادت تفقد السيطرة على اعصابها .. كانت تتوقع ان تظهر عليها آثار الامومة ، منذ الاشهر الاولى ، بيد ان الايام ظلت تتعاقب بسرعة .. دون ان يبدو في الافق ثمة ما ينم عن حدوث المعجزة .. لا شيء مطلقا غير الامل الذي بدأ الشك يخامرها فيه .. لا شيء سوى اللهفة والحنين الاخذين بالازدياد يوما بعد يوم ..

وحليمة ـ زوجة الشقيق الأكبر لقاسم وضعت طفلها الرابع في الشهر الاول من زواج نورية ـ وهاهي ، بعد خمسة عشر شهرا ، تضع مولودها الأخر .. يالله .. هذا لايطاق .. لاتطيقه ابدا .. لاتطيق ان تعيش في مثل هذا الجحيم ولاتملك القدرة على ان ترى كل هذا وأن تتألم وتتمزق .

ويبتعد بها قاسم عن هذا الجحيم .. ينتقل بها من دار الى اخرى... ثم يستقر بهما المقام في هذه الدار القابعة في هذا الزقاق الضيق لعله يستطيع ان ينقذها من العذاب الذى يمزق اعصابها .. ان يبعدها .. ولكن نورية لم يكن في مقدورها أن تعيش بمنجاة من كل احساس بالطمأنينة والاستقرار وتنتفض نورية كالملسوع عندما يشق السكون المخيم بكاء طفل منبعث من النافذة المواجهة .. انه سمير الطفل الاصغر لاديبة .

ويستمر البكاء فترة من الزمن .. يتخلله صوت الأم وهى تهدهده في ضجر ووهن .

ـ ديلول .. لله لله .. عدوك عليل وبالمذله

ولكن الطفل لا يكف عن البكاء فيرتفع عند ذاك صوت الأم وهي تردد بتبرم وغضب .

ـ زهر .. يعنى بالليل هم مالى راحة منكم .

وتغزو موجة عارمة من الألم قلب نورية .. فتضغط على شفتيها بقوة .. وتنظر بأسى مرير الى النافذة المقابلة وكأنها تريد ان تلتهم حديدهـــا بنظراتها النهمة الملتهبة ..

ـ الله ميعرف ألمن ينطى بزر .

وتتأمل برهة ـ ثم تضيف بسخرية وهى تتحسر .

ـ ينطى جوز الماعنده سنون .

لقد قدر لها ان تكون ، دون سواها ، محرومة من الاطفال ..لـم يكتب لها ان تكون أما كالاخريات .. ان تكون اما ولو لطفل واحد .. أجل طفل واحد لا غير .. طفل واحد لاتريد بعده شيئا .. ســوى هــذا الطفل .. طفل واحد . وليكن مشوها كسيحا .. طفل .. طفل ..أيـا كان نوعه ومهما كان شكله .. طفل واحد .. لاغير .. لاغير ابدا ـ ابدا

وتلتصق نظراتها الملتاعة من جديد بالنوافذ المنتصبة امامها كالشياطين المتمردة .. خلف كل واحدة منها تسترخي الان ام تضـم الى صدرهـــا الدافىء اطفالا هم عند نورية أغلى شيء في الحياة .. أغلى من كل شــىء يمكن ان يخطر على البال . ولكن الذى يحز في نفسها ويستثير حفيظتهـا هو ان تكون حياتها خالية من هذا الشيء الغالى الذى لايمكن ان يعوض . ان تكون حياتها قاحلة مجدبة فماذا في ميسورها ان تصنع حتى تملاء هذا الفراغ ؟

وكيف تستطيع ان تحيل هذا الجدب القاتل الى خضرة .. خضرة فحسب ـ ليس من المهم ، بعد ذلك ، أن تكون يانعة أو لا تكون .

قاسم بذل كل مافى وسعه لكي يبعد عنها مثل هذه الوساوس .. اخذ بيدها وسار بها في كل مكان .. طاف بها شوارع بغداد .. اخذهـــا الى متنزهات ابى نواس ارتاد معها دور السينما .. اصطحبها الى الحفـلات .. واحال مظهرها الى شيء فاخر جديد . شعرها المتهـدل في اضطـراب وفوضى استحال ، تحت مقص الحلاق ، الى (كارصون) .. قدماها اللتان

لم تألفا قط غير القبقاب الذي اشتهر بصنعه على النجار من خشب رخيص .. اصبحت تحتظنهما ، برفق ودلال أحذية من احدث موديلات ـ شارع النهر ـ والملابس التى كانت تنعم بها عليها ام عدنان استبدلت بفساتين جاهزة من المخازن المعروفة في شارع الرشيد والمستنصر .

ولكن هل استطاع كل ذلك ان يفعل فعل المعجزة في أحاسيس نورية وفي طباعها .. ان يملاء الفراغ الذ ى كان يزحف على كل جانب من جوانب حياتها .. ان ينبت سنبلة هزيلة واحدة في تلك الارض المجدبة التي كانت السبب في كل ما تعانيه نورية من تمزق . اغلب الظن ان الرصيد الوحيد الذى خرجت به نورية من حسابها الجارى مع مظاهر حياتها الجديدة لم يكن غير شعور بالكبرياء والتعالى اخذ ينعكس على تصرفاتها مع نفسها ومع الاخرين .

لربما لانها كانت تحسب نفسها وكأنها الرائدة الاولى لتلك الاماكن التى يقودها اليها قاسم .. او تشعر وكأنها المكتشفة الاولى لتلك الموديلات التى تقدمها لهاتلك المخازن في شيء من الاهتمام الزائف .

صرخة الألم العنيد ما زالت مدوية في أعماقها .. واللوعة المكبوتة ما زالت تفتت اعصابها .. ونورية مازالت تريد طفلا .. تريد ان تكون أما كالاخريات .. تريد ذلك وتريده بكل عنف وقوة واصرار .. وما تلحف نورية في طلبه لا يمكن ان يصرفها عن التفكير فيه شيء اخر في الحياة .

لقد جربت امورا كثيرة وهى تبحث عن السبيل الذى يوصلها الى ما تريد .. ذهبت الى الشيخ حميد ، ولجأت الى الشيخ جعفر .. وكتب لها هذا وذاك أدعية وأورادا كثيرة .. ونصحها كل منهما بأن تحمل قسما منها وان تشرب ماء قسم أخر وتقوم بدفن الباقى بين القبور .

ونورية قد حرصت ، حرصا كبيرا ، على تنفيذ كل ما اوصيت به .. بدقة متناهية .. وعلى الرغم من كل ذلك .. فان شيئا ما لم يحدث والمعجزة التى كانت تتوقعها نورية لم تتحقق ، والارض المجدبة لم تشق ولا عن

نبتة واحدة . تلك هي الكارثة ـ وذلك هو سوء الحظ الذى لا يريد ان يفارق نورية . وارشدها قاسم ، هذه المرة الى الاطباء لعلهم يستطيعون ان يرسموا لها طريق النجاة من المحنة ـ وعلى الرغم من ان نورية قليلة الايمان بهذه الطائفة من الناس فانها استسلمت للأمر لانها لاتريد ان تترك بابا دون أن تطرقه لعلها تعثر خلف واحدة من تلك الابواب على ما تريد .

وهكذا اخذت ردهات المستشفيات تستقبل نورية اياما واسابيع واشهرا متتالية .. لتلفظها بعد حين .. محملة بالخيبة والالم والمرارة ولتلتقفها ، بعد ذلك ، عيادات الاطباء والطبيبات ودور المضمدات وهن يحملن في ايديهن ـ السرنجات ـ استعداد لزرقة جديدة وفى كل مرة كان بودها لو تصرخ في وجه من يقف امامها .

ـ سوولى جارة .. اريد بزر ـ راح اموت .. راح اموت .

انها تريد أن تصبح واحدة من هؤلا اللواتي يحتضن أطفالهن ويسترخين الان فوق فراش دافىء وهن يستسلمن لنوم هادىء هانىء .. فماذا تفعل .. ماذا تفعل حتى يتحقق لها ماتريد ؟ ..

الاشواط التى قطعتها لحد الان لم تجن منها غير الخيبة والفشل .. ومن أمها كانت قد سمعت قصة تلك المرأة التي ظلت تلاحق الاطباء شهورا عدة وتقبل على استعمال كل علاج ودواء يشيرون به عليها ولكن دون أن تضع يدها على نتيجة ما . لكنها ما ان تلجأ الى الملا جواد ، يكتب لها بضعة ادعية تستعملها الا وتنجلي الغمة وتظهر عليها آثار الامومة بعد مدة قصيرة .. وقصيرة جدا . فلماذا لا تجرب هي اذن ما جربته هذه المرأة ؟ فلنجربه ما دامت قد أعيتها الوسائل والحيل .. ألم تقل لقاسم ان أطباء اليوم لايفهمون شيئا وانها لاترجو منهم اى خير ؟

ويترامى الى سمعها صرير مفتاح في باب .. فتمد ببصرها الى الطريق المظلم .. ويلوح لها شبح ام كمال وسط الظلام . ها قد عادت الى دارها بعد أن ستقدمت الى الحياة مولودا جديدا . أهكذا أبمثل هذه السرعة اذن ،

تتفتح اعين الاطفال على الحياة ؟ أبمثل هذه السهولة ينزلق الاطفال من بطون امتهاتهن ؟ ولتحل اللعنة ببطنها الذي لا يملك القدرة على أن يقذف الى الحياة بطفل واحد .

ـ هم اصدك اشوف ذاك اليوم بعينى .. يوم المبارك .

ويرتفع من جوف الظلام صوت طفل وهو يبكي .. انه سمير .. وتتفصد على جبين نورية حبات من العرق البارد ويتسلل خدر مفاجيء الى كل عضو من اعضائها المتداعية المنهوكة وتمتد يد في الظلام تضغط على قلبها ، وتضربها يد أخرى فوق رأسها الفارغ فتشعر بدوار مرعب مخيف من المحال ان تبقى مكتوفة الايدي حيال هذه المحنة دون ان تقدم على عمل شيء يتحتم عليها أن تصنع شيئا ما يضمن لها النجاة .. لتسلك الطريق الذي سلكته المرأة التي روت امها قصتها لعل الحظ يواتيها هذه المرة فتنعم بما تنعم به الاخريات .. و .. وتصبح اما ، اجل تصبح اما كالاخريات ايضا . وتنطلق من اعماقها حسرة ملتاعة .. وتنهض لتبتعد عن الشباك وترمي بجسمها المتعب فوق السرير البارد الموحش .. وفي اعماق عينيها المنتفختين من الارق .. يلتمع بريق عزم جديد ..

غدا ستذهب الى الملا جواد .. أجل ستذهب اليه غدا ..

وغدا ، دون شك ، سوف تتم المعجزة .

مِنْ أَجْلِ الآخِرِين

لئن كانت سكينة ، في عرف المجتمع ، مخلوقة كسائر المخلوقات فهي مجموعة من عظام متداعية لايعرف أحد أية قوة خارقة تمسكها الى بعضها البعض . ووجهها الناحل مجموعة من أخاديد توحي للمرء بانه اثر من الآثار العريقة في القدم .. تطغى عليه مسحة أصيلة من صفره قاتمة .. في الواقع تختلف عن الكثيرين منهم الى حد بعيد . فجسمها الضامر وعيناها تبدوان كثقبين صغيرين يحيط بكل منهما اطار مخرش لاتفتأ سكينة تجففه بكمها المهلهل فيعود الى الافراز من جديد ورأسها الكبير الذي لم تنبت فيه شعرة واحدة ، منذ أن قذفت به امها المرحومة الى هذه الحياة يستقر في خرقة كانت ذات يوم ـ بيضاء ـ ينعقد طرفاها تحت ذقنها ويتدلى طرفها الاخر حتى أسفل ظهرها ، يغطي نصفها الاعلى ثوب يخيل للناظر انه كان ذات يوم مشجرا .. ينتهي عند الركبتين بفتحات ليست هي ، بأي حال من الاحوال ، من صنع الخياط .. تلوح بعده ساقا سروال ضيق استحال لونه حتى اصبح تمييزه معجزة من المعجزات .. تستقر أطرافه المتأكلة فوق قدمين متعلقتين بشيء لا يعترف الاسكافيون بانه حذاء .

لم تكن سكينة واحدة من المشردات ولم تكن هاربة من وجه العدالة ـ انها كما تدل على ذلك السجلات المحفوظة في دوائر النفوس ، ليست سوى حلقة صغيرة واحدة من سلسلة يتألف من مجموعها العمود الفقرى لجسم ضخم كبير .. اسمه المجموعة البشرية .

سكينة هذه زوجة بائسة لرجل منكود تعثر حظه ، في غفلة من الزمن ،

فجر ذلك ، عليه وعليها الوبال والشقاء . وهي بعد ذلك ، أو قبله ، أم لثلاثة أطفال كان ينبغي أن يكونوا موفوري الصحة تطفح وجوههم بالبسمات .. وهم يمرحون تحت عرائس الكروم وخمائل الزهور المنتشرة في جوانب تلك القرية الضاحكة الرابضة تحت أقدام ذلك الجبل الأخضر لكنهم حرموا من ذلك كله واحتضنهم الشقاء الذي نزل بابيهم العاثر ليلفهم بدوامته فغاضت البسمات واصفرت الوجوه وهزلت الاجسام الطرية وغدت وكرا لمجموعة من الامراض .. وسكينة لاتملك ، وهى تتابع هذا التحول المفجع بقلب يفطره الهم ، الا أن تتضرع الى السماء ان ترفق باطفالها وتمنحهم الصحة التي حرموا منها وتنعم عليهم بالشفاء ولكن ذلك التضرع لم يعد عليها بنفع أو بجدوى على أي حال من الاحوال .

وقبل ان يتأهب اليأس للتغلب على قلب سكينة .. يلوح لها اللجوء الى المستشفى خير مهرب من المحنة . ولكن المستشفى تقع في المدينة والمدينة تبعد عن القرية مسافة يتطلب قطعها السير على الأقدام اكثر من ساعة .. وهذا مالا تملك سكينة طاقة احتماله فى ظروفها الراهنة . ومع ذلك فهي تأخذ على نفسها تنفيذ الفكرة ولا تحجم عن المضى الى هناك لعل ذلك يعود بالنفع عليها وعلى الاطفال وينجيهم من العلل التي لا تنفك تستتبع الواحدة منها الاخرى .. منذ اشهر .. وهى ما دامت تريد لاطفالها الحياة السوية ولاتملك غير هذا الحنان الكبير الطاغى الذى تكنه لكل واحد منهم في قلبها المجروح .. فانها ستتحمل هذه المشقة وتتحمل معها كل مشقة .

ومع ساعات الصباح الاولى تبدأ سكينة بالزحف نحو المدينة بصعوبة وتعثر .. لعلها تبلغ المستشفى في وقت مبكر ييسر لها الوصول الى غرفة الطبيب التى يشتد حولها الزحام في اغلب أيام الاسبوع .. وتطوى الطريق خطوة بعد اخرى وهي تنوء بالحمل وتتعثر في مشيها . ويتعالى صوت طفلها الصغير بالعويل لابد انه بدأ يشعر بالجوع الان .. والحليب في ثدى سكينة عملة نادرة لايمكن ان تكون في متناول فم الرضيع في كل

الاوقات التى يحتاج اليها .

وتضم الام طفلها بكل قوة الى صدرها تشعره بكل مايستبطنه من حب وتطبع على وجهه المبلل بالدموع قبلة باهتة تودعها كل حنان الأمومة المجروحة ولكن القبلة لا يمكن ان تكون ، في يوم من الايام ، بديلا لقمة يتبلغ بها الانسان ـ كبيرا كان ام صغيرا .. وعندما لا يكف الطفل عن البكاء تفترش سكينة الارض لتضع حلمة ثديها الاهدل فى فم هذا الجائع الصغير ويتربع الطفلان الاخران الى جانبها فتشملهما الام بنظرة وادعة يمتزج فيها الحب بالاشفاق والالم الممزق وتتناول لفة صغيرة كان يحملها واحد منهما منذ ان غادر الموكب القرية وتخرج ما فيها من الجبن والخبز وتوزع القسم الاوفر منهما على الطفلين وتستبقى لنفسها مايشغل معدتها عن الجوع .

وعندما تعاود السير من جديد تأخذ أثار التعب بالظهور عليهما وعلى طفليها الذين يسحبان جسميهما الصغيرين خلفها بوهن وسكون . هل ستجد هناك في المستشفى ، وعلى يد طبيبه الشفاء الذي تتحمل من أجله كل هذا العناء ؟ قالوا لها انه رجل طيب .. لا يبخل بالعناية والاهتمام بأمثالها من البائسين .. ولا يضن بكل ما يعمل على مسح اثار البؤس من حياتهم والكثيرون من هؤلاء وجدوا على يديه الشفاء فعسى ان ينالها ، هى واطفالها ، شيء من هذا النصيب فينجون من هذا العذاب الذي يطحن حياتهم وبيتهم ووجودهم ... ويبسط ظله الثقيل عليهم منذ اشهر .

ولكن من المسؤول عن هذا البؤس الذي يخيم عليهم الان يا ترى ؟ سكينة لا يطاوعها قلبها ان توجه اصبع الاتهام الى زوجها مراد لانها لاتريد مضاعفة احزانه وألأمه . قد يكون ذلك للحب الكبير الذى يملاء قلبها نحو الرجل الذى عصف به البؤس وخانه سوء طالعه وقد يكون ذلك لايمانها العميق بان المسألة لا تعدو كونها مسألة قسمة ونصيب .

مراد كان يعمل قبل ان تلفه الكارثة فلاحا في حقل يحتل البطيخ

نصفه الاكبر وتقوم في نصفه الاخر اشجار لفواكه متعددة ـ فطعامها يتألف في كثير من الاحيان من تلك الفواكه والمحاصيل وهذا بدوره يعمل على تخفيف مصروفاتهم اليومية الى حد كبير بل ويتيح لها فرصة التوفير والادخار . وكان مراد ، في مساء كل يوم من تلك الايام ، يملاء عربة كبيرة من عربات النقل .. بثمار الحقل .. ثم يستقل دراجته الخاصة ليسبقها الى المدينة حيث يجلس بانتظار العربة المحملة عند دكان بقال معروف فيفرغ الحمل امام الدكان ويتمدد على الرصيف لينام بعين ويحرس المحصول بعين ويقبل الصباح ويتم بيع المحاصيل التي جلبها مراد وغيره من الفلاحين الاخرين من القرى المجاورة على يد البقال لقاء عمولة معينة ويقبض مراد ثمن جهوده المشرفة المتواصلة ويعود الى الحقل ليسلم ما يحمله الى المالك وليجد سكينة الى جانبه تبسط يدها نحوه وتهيب به ان يبدأ كفاحه لليوم الجديد من أجل شي واحد .. من أجل الاطفال الذين لا يملكان شيئا في الحياة سواهم والمالك رجل طيب لم يفكر في ان يجحف حقا لمراد .. فى يوم من الايام ولم يبخل عليه بما يفيض لديه من الخير الوفير .. وجود كهذا الجود .. كان كفيلا ، دون شك ، ان يبعد عن مراد وسكينة اى شعور بالحاجة والعون وكيف يستشعران الحاجة والعون ولقمة الخبز متيسرة الى حد يفوق الكفاف والمال والخير المتوفران يطردان الفاقة .. والصحة نعمة من الله مسبوغة على الجميع .. والاطفال ؟ حتى الاطفال لم يحرم الله مراد او سكينة من نعمة وجودهما .

ولكن يسر الحال والسعادة لم يكونا ، في وقت من الاوقات ، ملازمين للانسان دوما .

وذات يوم قدر لسكينة أن تستيقظ من حلمها الناعم لتلمس بتحفظ معالم تحول مفاجىء عند مراد .. تحول غير مألوف ولا متوقع وراعها ذلك .. وساورتها الريب والشكوك بشأنه ..لكنها لم ترتبك وأثرت ان تلتزم جانب التعقل والاتزان وبسكون يقظ متحذر .. طفقت تراقب مرادا وتتابع

كل معالم التحول الذي كان يسير فيه باطراد . كانت تلاحظ سحابة السهوم تخيم على صفحة وجهه الاخذ بالشحوب كلما عاد من المدينة .. كانت تتفقده ، خلال ساعات النهار ، فتلفاه ، خلافا لما تعود عليه ، منزويا في ركن ناء من الحقل .. اذا ما رأها انتفض كالمذعور . وكأنه يجهد نفسه لكي يخفى عنها أمرا لا يريد افتضاحه ، وسكينة لم يكن يخفى عليها كل ذلك .. كانت تراه بعينها الفاحصة وتتلمسه باحاسيسها المرهفة وفطنتها النادرة لكنها في كل الاحوال ، كانت تتجاهله وتبدو امام مراد وكأنها لم تلحظ شيئا فتقبل على الزواج المهدد بخطر مجهول كما تقبل الام الروؤم على ابنها الوحيد .. تمسد له لحيته المسرحة المستديرة وتطبع قبلة فوق رأسه ذى الشعيرات الحمراء المتناثرة وتدلك براحتيها الحانيتين يديه ورجليه .. وتقول له وهى تلاطفه بانها اشترت له اليوم من عطار القرية قليلا من الحناء التى يحبها لكى يصبغ بها لحيته المستديرة وكفي قدميه ويديه .. وعندما كان يجيبها ، وهو يشيح عنها بوجهه ، بانه لايملك الرغبة في عمل ذلك .. كانت تبالغ في ملاطفته فتلف يديها بعطف وحنو كبيرين، حول رقبته وتقول في رجاء أغنج .. ان يفعل ذلك من اجلها هى .. لانها يغبطهـا ان تراه كذلك دوما .

كانت المسكينة تفعل ذلك وهى تغالب الألم بينهـا وبين نفسهـا .. وتضغط على قلبها بقوة حتى لا ينفجر ولا ينفطر . كانت تتمزق من الغم لانها كانت تحس بان مرادا يدخل في صراع نفسى مريع يوشك ان يخرج منه مغلوبا على أمره . كانت تحس بان عاصفة عاتية تزمجر في اعماقه توشك ان تقتلع الجذور العميقة التي كانت تمسكه الى الحيـاة .. وتربطـه بزوجته واطفاله . كل ما كانت تخشاه سكينة وتهلع له ، هو ان يخرج مراد من هـذه المعـركة غير المتوقعة .. وهو يلوذ باذيال الفرار تهد العاصفة اركانه وتجعل منه ضحية باردة .

كم بحثت سكينة عن السبب وعجزت عن ادراكه .. كان يرعبهـا

ويشقيها ان يكون ثمة سر كبير خلف هذا التحول المفاجيء الغريب .. سر قد يكون معولا يهدم عشهما الجميل .. قد يصبح مصدر شقاء ابدى لهما ولاطفالهما وان يقطع عنهما هذا الرزق الحلال الذى قد يحسدهما عليه الاخرون .

كانت تخشى ان يستفحل الامر الذى يشغل بال مراد ويتسبب في تدهور صحته وابعاده عن حياته الرتيبة .. كانت تخشى ان يستفحل ذلك ويؤثر في نفسه فتكون عاقبة ذلك كله المأساة والفجيعة والطرد من الحقل .. المالك رجل لاغبار على طيبته .. تلك حقيقة لايرقى اليها الشك .. ولكن سكينة قد تعلمت من تجاربها في الحياة ماجعلها توقن بان الناس جميعا حتى الطيبون منهم يتوقعون لطيبتهم ثمنا .مراد من جانبه يزداد يوما بعد يوم انصرافا عن العناية بامور الحقل وتصريف محاصيله .. كما يزداد شحوبه وانطواؤه على نفسه ـ وسكينة لاتجرؤ ان تسأله عن الدوافع والاسباب وهى تحجم عن ذلك وتتردد فيه .. لا لانها تخشى وتخاف ولا لانها تتهيب ان تفعل ذلك وتقدم عليه .. بل لانها تخشي ان يزيد سؤالها من الآلام التى يعانيها مراد .. ان يورث النار التى تلتهب في جوانحه وتوشك ان تلتهم اضلاعه .

ولكن كان لابد لها ان تعرف ذلك في يوم من الايام .

ويوم ان عرفت الحقيقة .. يوم ان عرفت ان مرادا وقع ضحية الترياك اوقعه نفر من اولئك الذين شاء له نكد طالعه ان يلتقى بهم في المدينة في اثناء تردده عليها .. وفى عرض تلك الليالى المقمرة التى كان يفترش فيها ارض الرصيف انتظارا لمقدم الفجر .. يوم ان عرفت ذاك اظلمت الدنيا في عينيها وخيل اليها بان جبلا كبيرا ينهار ، بكل صخوره الصماء ، فوق رأسها .. فينهار معها صرح سعادتها في غمضة عين .

ولم تقف سكينة مكتوفة الايدى ازاء هذه المحنة النازلة فشرعت تبذل كل ما في وسعها من اجل انقاذ مراد . ولكن الذى حز في قلبها واشاع

فيه اليأس ، وهى التى لم تعرف لليأس معنى في حياتها ، هو ان مرادا كان يهز لها رأسه بقنوط ودموع الألم تنحدر لاول مرة في حياته فوق لحيتـــه المنسرحة المستديرة كمن يقول لها :ـ

لقد فات الاوان ياسكينة .. أجل فات الاوان ولكن سكينة لم تستسلم لهذه الموجة الطـــارئة من اليأس .. لم تعبس في وجـه مراد وهي التي كانت تضحك في وجهه دوما وابدا .. لم تفعل من ذلك شيئا بل فضلـــت عليه انقاذا لهذا الموقف الذى اخذت تزداد دقته ساعة بعد ساعة ، ان تشمر عن ساعدها وتشمخ بقامتها المنتصبة وتمد عبر الافق نظرة ملؤها العزيمـة والثقة بالنفس .. وتدق بيدها على صدرها بقوة .. لن يكون في الامر ثمة تغيير ولن يفلت من اليد خيط واحد .. ذلك لانها هي التي ستحل محـل زوجها مراد في الحقل وتقوم بكل ما كان يقوم من أعمال .. وعلى المالـــك ان يبحث عن شخص مهمته الوحيدة نقل المحاصيل الى المدينة والسهر معها حتى الصباح لبيعها . هذا هو كل ما تريده ـ ولا تريد ما عداه ـ وليترك المالك الامر كله لها . غير أن ذلك ، كما يبدو ، لم يرق المالك ولم يقع في نفسه موقع القبول والرضى .. فتغير وتلون .. وتكلم وتحجج .. واشـار وأفصح .. وانتهى ، آخر الامر ، الى أن يقفل باب حقله ومزرعته في وجه مراد ووجه زوجته .

وأصبح على العائلة ، وقد باتت في حكم المشردة ، أن تواجه الحياة ، عند ذاك ، بسلاح يعلوه الصدأ .

وكانت التجربة قاسية حقا .. وما فتىء البؤس ان وجد ، في حياة مراد وسكينة ، مستقرا له .. فتهدمت صحة مراد واستحوذ المخدر الملعون على كل ذرة من وجوده وبات لا يقوى على الحركة ولا يبرح الفراش. وساءت صحة سكينة واتلف الهم عينيها واستل منهما ذلك البريق الـــدافيء الذى كان يلتمع في اعماقها .. واعتلت صحة الاطفال من الاهمال والجوع والحرمان . ولكن سكينة ظلت ، على الرغم من كل ذلك ، محتفظة بعزمها تأبى أن تلقى السلاح وتعلن هزيمتها .. وتأنف من أن تحنى رأســها

للعاصفة .. بل أصرت على المضى في خوض المعركة .. مهما كان نوع السلاح الذى تملكه في يدها . وهكذا أخذت تسعى للتنقل في القرية والمدينة لكى تتولى مهمة غسل الملابس في بيوتها .. وهى وان افلحت في توفير لقمة الخبز لنفسها وللاخرين .. ردحا من الزمن .. الا أن المضى في هذه المعركة كان يبدو أمرا غير ميسور .. لان عملها لم يرض الكثيرات من ربات البيوت المتبطرات . ولان أطفالها كانوا بحاجة اليها دوما . وهي وان أخذت أصغرهم معها فلمن تترك الطفلين الآخرين . ومراد المسكين يسير من السيء الى الاسوأ بفعل الادمان . وهكذا وجدت سكينة نفسها مضطرة الى الاوبة من هذه المعركة التى خاضتها بسلاح يعلوه الصدأ ، وهى تجر معها الخيبة . في هذه المرة كانت سكينة ومن معها قد بلغوا من البؤس والفاقة والعوز حدا أثار مشاعر اللطف والاشفاق عند اثرياء القرية وسراتها الذين غدت سكينة تتلقى منهم ، بألم وامتعاض ، قطرات شحيحة بالكاد تقوى على طرد شبح الجوع المتنمر في اعماق سكينة ومراد والاطفال .. وكم من ليلة أمضتها سكينة وهي تصارع شبح الجوع لتشبع مرادا وتشبع طفليها الآخرين .. بما يستنزل من الاكف التى لم تتعود الاسراف في الجود والعطاء أما طفلها الثالث فقد كانت حياته مرهونة بما يدره ثدياها الشحيحان وتستفيق سكينة من تأملاتها المريرة .. لتجد نفسها وقد طوت من الطريق معظمه وأوشكت على الوصول الى المستشفى وهي منهوكة خائرة القوى ، ومن خلفها طفلاها المرينان يتعثران في المشي وعلى وجهيهما شحوب البؤس والفاقة والمرض .

وفي داخل المستشفى وجدت سكينة نفسها امام جمع غفير من رجال ونساء وأطفال وجوههم كالحة صفراء وعيونهم ذاوية خابية واجسامهم ضامرة منكمشة ليس بين معظمهم وبين الحياة غير خيط واه رفيع .. جاءوا جميعا الى المستشفى يبحثون عن العلاج الذى يستطيع أن يستبقى لهم ، بمعجزة سحرية ، ذلك الخيط الرفيع الواهى الذى يربط بينهم وبين الحياة ـ ولو لحين من الدهر .

وتتهالك سكينة على الارض ويستلقى الى جانبها اطفالها المتعبون . جلست وهي تنتظر اشارة الدخول الى تلك الغرفة السحرية التي بدت محط أنظار جميع الوافدين على المستشفى .. لعلها تستطيع أن تفعل ما لم تفعله السماء .

ولكن هل سيتحقق ذلك حقا ؟ ان سكينة لا تستطيع أن تجزم بذلك ووضعها لا يسمح لها بالاجابة على هذا السؤال اجابة شافية .

ان الزحام شديد جدا .. ومن كل مكان ، في أرجاء المستشفى ، ينهال على آذان سكينة الأنين والعويل والضجيج.. والوقت يمضى ببطء قاتل وسكينة شاخصة بعينيها الصغيرتين الى غرفة الطبيب عسى أن يخف الزحام ويأتي دورها ، ويبكي الطفل الصغير من جديد فتضمه الى صدرها بلهفة وحنان وتطبع على وجهه المخضل بالدموع القبلة تلو الاخرى ، وتنتظر ساعة الفرج بفارغ الصبر .. لعلها تخرج من هنا وهى تحمل معها بلاسم الشفاء لنفسها ولاطفالها الذين يهون عليها أن تتحمل من أجلهم كل عناء ومشقة ، ولكن الطفل لا يكف عن البكاء .. فتمد سكينة يدها المعروقة لتخرج ثديها عندما يداعب سمعها صوت ناعم رقيق يقول لها باستعطاف :

ـ هل استطيع ان أودع لديك هذا الطفل لبرهة وجيزة ـ برهة وجيزة لا غير .. ساعود حالا واسترجعه منك ؟

وتنظر سكينة الى محدثتها فتجدها امرأة شابة ذات جمال مفرط .. فارعة القامة ممتلئة الجسم واسعة العينين على جانب كبير من الاناقة .. فتوءخذ المسكينة بلهجة المرأة المستعطفة وبجمالها المفرط .. وقبل ان تتلقى المرأة من سكينة الجواب .. تخرج من تحت ازارها الثمين طفلا يغلب على الظن انه مولود جديد .. تناوله لسكينة وترجوها ان تعني به ريثما تقضى حاجة وتعود . وتضع سكينة طفلها الصغير على ركبتيها وتحمل الطفل الاخر بين يديها وتمعن النظر فيه وتجرى مقارنة سريعة خاطفة بينه وبين

اطفالها • وامتلأ قلبها ألما وحسرة • كم تود لو ان هذا الطفل كان ابنا لها•• لو أنها كانت تملك مثل هذا الطفل •• لو أن أطفالها يملكون جزءا مما يملك من صحة وعافية •• اليسر والرخاء يرفرفان عليه وهو ما زال حديث عهد بالحياة ـ فاية سعادة ودلال سيلقاه غده ؟ وتطيل التأمل في أطفالها الذين يحيط بهم البؤس من كل جهة •• ويتحرك في اعماقها شعور بالاسى المكتوم وتمسح بكمها المهلهل دمعة تشرع بالانحدار من جانبى عينيها الصغيرتين •

ويمر الوقت شيئا فشيئا ـ وصف المرضى مازال طويلا وسكينة متلهفة الى الوصول الى غرفة الطبيب •• تنقل طرفها بين اطفالها وبين ابن المرأة الجميلة بين حين وآخر ويبكي طفلها الصغير مرة اخرى فتخرج له ثديها لتسكته ويتململ الطفل الاخر ثم يشرع بالبكاء هو الاخر ـ فتأخذها الرأفة به ـ وتنحي طفلها جانبا ، وتضع الثدي الضامر الشحيح في فم الطفل المدلل، ابن الجميلة ذات الشكل المهيب والازار الثمين ويمر جزء آخر من الوقت يخيل لسكينه انه طويل جدا • ويرتفع صوت فراش الطبيب معلنا انتهاءالدوام طالبا من الذين لم يتسع الوقت لفحصهم اليوم ان يعودوا في ساعة مبكره من الغد • فتنهض سكينة من مكانها اوهي تتحامل على نفسها اعياءً وجوعا ، وتأخذ بالبحث والتساؤل عن المرأة الجميلة ، وفي قلبها جزع وحيرة • وفيما كان الفراش يخرج الموجودين من باحة المستشفى كانت سكينة تتلفت هنا وهناك في قلق وفزع وتتعلق باذيال الموجودين وهي تتوسل قائلة :

ـ لمن هذا الطفل ؟ هل تعرفون أمه ؟ ذهبت لتعود وتأخذه ـ الا تعرفون أين هى ؟•• وكان الجواب الذى تتلقاه من الجميع نفيا ممزوجا بالاستغراب • وأوشكت باحة المستشفى أن تقفر وازداد الهلع استيلاءً على قلب سكينة وارتسمت امام عينها صور مبهمة مرعبة •• موحشة •• فهرعت في اثر اخر جماعة تهم بالخروج واخذت تتعلق بهم وهي تقول في أسى وتضرع :

ـ خذوه منى ريثما تعود أمه وتسترجعه منكم ـ علي أن أعود الان الى

القرية وانا اجرجر معي هؤلاء الاطفال المرضى .

ولكنهم رشقوها بنظرة استخفاف وقال لها احدهم سخرية ماكرة :

ـ أحقا لا تعرفين أين هى أمه ؟ مسكينة .

واردف اخر وعلى شفتيه ابتسامة لاذعة

ـ وماذا عن ابيه ؟ انك تعرفينه طبعا .. أليس كذلك ؟

وتتسمر قدما سكينة الواهنتان في مكانهما وتعقد الحيرة المريرة لسانها ويستولى الرعب على كل ذرة من احساسها . فلا تدرى ماذا تقول ولا تعرف ماذا تفعل بعد أن غابت المرأة الجميلة عن الانظار والقت اليها بهذا العبء الجديد .

وعندما يغلق باب المستشفى .. تأخذ سكينة بالتنقل في طرقات المدينة كالمجنونة .. تطرق الابواب بحثا عن امرأة ذات جمال مفرط فارعة الطول ممتلئة الجسم واسعة العينين .. على جانب كبير من الاناقة في لهجتها نبرة استعطاف .. وفي نبرات صوتها سحر أخاذ .

الخيط الأخير

انطوت اليوم آخر صفحة من حياة نجية .

وعندما كانت المسكينة تجود بانفاسها الاخيرة وهي ملقاة على بلاط الشارع وسط بركة كبيرة من الدم .. كانت ترسل من عينيها اللتين بدأ ينطفىء فيهما بريق الحياة منذ أمد طويل .. نظرات راحت تتعثر فوق الوجوه التي تطل عليها من خلال الكوة التي تتراقص امام أهدابها المرتعشة وكانها تريد ان تستقر فوق ذلك الوجه الذي تغلب عليه صفرة الفزع لتقول لصاحبه :

ـ لا تخف .. انت لم تقترف ذنبا .. لقد أسديت لى معروفا كبيرا.. فشكرا لك .. وألف شكر

عندما خرجت نجية صباح اليوم من الدار التي تسكنها في بغداد الجديدة وركبت سيارة الباص التي قذفت بها ، كما تقذف سواها ، فوق رصيف الفلكة الكبيرة قرب معسكر الرشيد .. لم تكن تتصور بان بصيص الحياة الذى ظل يرتعش في صدرها أعواما طويلة كما ترتعش ذبالة في مصباح اوشك زيته على النفاذ سينطفىء فجأة وبمثل هذه السهولة اغلب الظن انها لو كانت تعرف لاعدت للامر عدته ... ولتأثرت على الاقل بالالام التي ظلت تعلق بقلبها كوباء لا يرجى منه شفاء . لمست بباطن كفها مواضع الجرح من جسمها الملطخ بالاوحال .. لرفعت رأسها الى الافق والتهمت دفقات من النور الذى حرمت منه طوال تلك الاعوام التي سلختها وهى لا تألف غير الظلام ولا ترفع بصرها عن الارض التى تتمرغ فوقها بامتهان لانتزعت عن شفتيها المطبقتين عبوسهما ورسمت فوقهما ابتسامة عريضة

تستهين ، ولو في تلك اللحظات الاخيرة ، بقصة تاريخ حافل بالالام مغفر بالتـــراب .

لكنها عندما اغلقت خلفها باب المنزل في هذا الصباح وجعلت وجهتها الفلكة الكبيرة كعادتها كل يوم .. لم تكن تعرف بان آخر صفحة مـــن صفحات حياتها ستطوى وان صاحب الوجه الكالح المتبلد لن يكون في وسعه أن يطاردها ويهددها بعد اليوم وانها لن تعود مرة أخرى الى تلك الـــدار التي تشرب كل شبر من أرضه بقطرة من كرامتها وانها لن تسمع زعيق أم حسن الذى يرتفع دوما باقذع أنواع الشتائم والسباب . انها لم تكـــن تعرف بأن خيوط المأساة قد تجمعت كلها في يديها ، وأنه لم يعـد هناك ثمة مكان لغير خيط واحد هو الخيط الاخير من المأساة .

وهذا هو ما جعلها تغادر الدار وهى تتعثر بآلامها وتمضى نحو الفلكة الكبيرة كتلة من لحم وعظام متحركة .. يعوزها الحس بالحياة .

لقد كان يؤلمها أن تعيش حياة ضائعة يطبق عليها الظلام من كـــل جانب .. حياة ترتبط خيوطها بهذا الوسط الذى ينعق في أرجائه البـــوم وتعشعش في أطرافه الغربان .. وتُسدَل على كل اطرافه اسداف محكمة لاتترك منفذا واحدا للنور .

كانت تود لو أن قدمها لم تزل بها ، لو أنها لم تنحدر الى هـــذه الهاوية التى مرغتها بالاوحال وخنقت وجودها وهدرت كرامتها واخرجتها من طورها الانساني لكى تجعل منها ، بعد ذلك ، سلعة مرتخصة تتحـــكم مخلوقة تافهة كأم حسن في مصيرها .

كانت تود لو أن حياتها التاعسة لم تغد لعبة في يد هذه المخلوقـــة ذات القلب الموصود .. التي تمتص شبابها قطرة اثر قطرة وتقذف في وجهها عوضا عن ذلك باقذع الشتائم والسباب .

كنت تتمنى لو أن تصرفاتها لم تعد رهنا لاشارة مخلوق كصاحب ذلك الوجه الكالح المتبلد ذى الحذاء الاسود الثقيل الذى ترن ضرباته الكريهـة المتتابعة في اذنيها كل يوم .. مختلطة بذلك الفحيح الاصفر الذى ينبعـــث

من بين شفتيه .. دون أن يعى سمعها منه غير جملة واحدة : « درهمين لو أوديج للمركز .. »

تتمنى لو أنها كانت في مكانة غير هذه المكانة .. مكانة أرفع من أن تكون عرضة لمداعبات ممجوجة يصبها في اذنيها المرهقتين ذلك السائق الثقيل الذى يتعمد أن يتصدى لها ، وهو قابع بشكله المنفر الكريه خلف مقود سيارته الكبيرة .. كلما لقيها تجوب الساحة الكبيرة .

أشياء كثيرة تتمناها نجية في هذه الحياة .. لكن تحقيق أى واحدة من تلك الاماني يبدو لها أمرا غير ميسور ـ ليس في مقدور يدها أن تصل لواحدة منها ـ لقد فات الاوان ، وانتهى كل شيء .. وبعد هذه الحقبة الطويلة التى تصرمت عليها وهى ماضية في التمرغ في الاوحال ـ مكرهة على ذلك كل الاكراه ـ أجل لقد فات الاوان ـ وأفلت التحكم في المصير من يديها .

أشباح البؤس لا تنفك تطاردها بضراوة وعناد واصرار .. والالم يلوك حياتها والهوة تطبق عليها بأحكام .. وتشيع حولها جوا مشبعا بالعفونة والفساد .. والهياكل الكريهة ، والغربان الناعقة ، وأم حسن ، وذو الوجه الكالح المتبلد .. تتجمع كلها وتتضافر لتؤلف كوابيس تشيع في حياتها الرعب ـ وتنفث فيها السموم ـ وتطاردها دوما وفي يدها سياط تلهب ظهرها بلا رحمة وتمزق حياتها بكل قسوة .. وتسحق عظامها .. عظمة بعد عظمة ..!

خيوط المأساة كثيرة وطويلة .. تمتد وتتشابك .. وتتكور في يدها هكذا مرة واحدة .. فتبتسم لها حياتها كهذه الخيوط المتشابكة التي تبعث في نفسها قلقا مروعا قاتلا .

ولكن من أين بدأت هذه الخيوط تتجمع .. وكيف تجمعت على هذا النحو ؟

وتتصاعد حجب كثيفة من الضباب تتراقص ، أعمدتها الملتوية ، فوق أجفان نجية .. وتتسلل الى صدرها ثقيلة .. ثقيلة .. تتراءى من خلالها

صور تتراكض بسرعة وانبهار تريد الواحدة منها أن تلحق بالاخرى .

ان قصتها لا تكاد تختلف عن قصص الاخريات انها لا تختلف عن تلك القصص الا قليلا .

أحبها .. ولم يكن له ارتباط بأحد في الحياة ، ورحل أهلها ، بعد أن تم زواجهما ، الى مدينة لا تقع ضمن حدود العراق وعرفت انه على اتصال بجماعة يختلي بأفرادها بين حين وحين فلم تقل شيئا الا بقدر ما يعرب عن قلقها على مستقبله ومستقبل الجنين الذي ستتفتح عيناه على الحياة قبل أقل من عام .

وقبل أقل من عام بدأت تلتف حولها الخيوط الاولى من المأساة .

ويرتفع صدر نجية ببطء ويهبط بقوة وتنطلق من اعماقها حشرجة تحمل معها كل أوزار التجربة القاسية التي تعانيها منذ أعوام ... التجربة التي يمثل تسكعها فوق أرصفة هذه الفلكة الكبيرة ذروتها .

لقد تحققت مخاوفها واستطاعت العيون المترصدة أن تلتقطه مع الاخرين . وبات عليها ان تجابه الحياة بمفردها .. فلم يبق لها ، بعد ان أبعدوه عنها ، أحد سوى ذلك الجنين الذي كان ينتظر الحياة .. ليستقبلها بعد ذلك ، بعيدا عن عين أبيه .

وانتظمتها موجة طاغية من فزع رهيب ، ودارت الارض أمام عينيها ، واوشكت ان تفقد ، من هول الكارثة ، صوابها ، ولكن الايدي التي امتدت اليها هي التي استطاعت أن تسندها وتنتشلها .. وتصنع المتكأ الذي يقيها من السقوط .

وانتقلت الى بيت عائلة من أصدقاء زوجها لتجد من يرعاها ويتولى أمر العناية بها ويكون خير عون لها في محنتها .

وتتصاعد سحب اخرى من ضباب كثيف يتراقص فوق أجفانها ويتسلل رويدا رويدا الى صدرها المثقل .. تتراءى من خلاله صور اخرى تتراكض بسرعة وانبهار تريد الواحدة منها أن تلحق بالاخرى .

وتتلفت نجية في أرجاء الفلكة الكبيرة ، بأسى وتوجس ، كأنها تخشى أن تجد أمامها شيئا يثير في نفسها الخوف والتقزز • واستقرت نظراتهـا عند الكشك المنتصب في الجهة المقابلة من الفلـكة •• فشعرت بشيء من الاطمئنان • وكم كانت نجية بحاجة الى الاطمئنان في هذه الحيـاة •

الامر الوحيد الذي تشعر برغبة ملحة في عمله ، وهي تقوم بجولتها المألوفة في كل يوم •• هو الوقوف عند هذا الكشك لتشرب شيئا يرطب جوفها الملتهب •• وتتحدث الى صاحب الكشك العجوز الذى كانت تحس بميل شديد نحوه وتشعر في قرارة نفسها بأنه يحدب عليها كثيرا ويتحسس آلامها ويشفق على وضعها دون أن يملك جرأة الافسـاح لها عن ذلـك •

وتظل الصور تتراكض في مخيلتها ، الواحدة اثر الاخرى ، وهي واقفة جنب الكشك تنظر الى وجه صاحبه العجوز بصمت •• وتتناول من يده النحيلة قنينة الكوكا •• ويهتز شيء ما في صدرها عندما تحس بنظراته الحانية تتسلل الى أعماقها بصمت أيضا •• وتغمض عينيها وهي تتنـاول الجرعة الاولى من القنينة •• وتراءى لها وليدها المنتظر وهو يسقط من أحشائها بلا حياة •• لعل ذلك كان من أثر الالام التي تكابدها وتتلوى منها ليل نهار •• ويلوح لها زوجهـا وهو ما زال مغيبا خلف الاسـوار العالية لا يعرف أحد ما عسى أن يكون مصيره •• ولا يدرى أحد متى يتم اطلاق سراحه واخلاء سبيله •

وتتراءى لها مجموعة من صور أخرى •• صور متداخلة مضطربة تتراقص وسط أعمدة من دخان أسود كثيف •• تلوح من خلالها يـد تمتد اليها ، هكذا مرة واحدة ، برفق ولين ، تريد أن تعانق أحلامهـا الضائعة وتمسح عنها آلامها •• وشفاه تتحرك بسحر أخاذ لتغدق الوعود وتبني قصورا شامخة من الآمال •• وترسم صورا خلابة ليوم غير هـذا اليوم •

ثم ترى نفسـها وهي تدور وتدور •• تتلقفها دوامة لتسلمها الى

اخرى .. الظلام المبهم يكتنفها من كل جانب .. والدوار يعصف برأسها والمسالك تبدو متشعبة أمام قدميها .. والحيرة والالم يعملان في قلبها كمنشار ذى حدين .

وجدت نفسها وسط كومة من متاعب لم يعد في وسعها أن تعرف من أى واحدة منها تفلت وكيف تفلت .. أصبحت تتجنب الطريق المستقيم آناً مخافة أن ينتهي بها الى هاوية مهلكة .. وآنا تغذ السير ، وهي معصوبة العينين ، في دروب ملتوية .. ظنا منها انها تقودها الى النجاة ..

كانت تتحاشى دفقات النور خشية أن يغشى بصرها فيضلها السبيل.. وتحتضن ، عوضا عن ذلك ، الظلام متوهمة انه سينبلج عن فجر .. ينير لها الطريق وتتصاعد سحب أخرى من ضباب كثيف يتراقص فوق أجفانها الوانية .. ويتسلل الى صدرها ثقيلا .. ثقيلا تتراءى من خلاله صور تتراكض بسرعة وانبهار تريد الواحدة منها أن تلحق بالاخرى .

وتظل خيوط من ذلك الضباب عالقة بأجفانها .. فتغلق عينيها المتعبتين حينا وكأنها تتعمد أن تتفادى رؤية شيء لا تود رؤيته .

لقد قفزت الى ذهنها صورة أحدثت في نفسها موجة استياء يمتزج فيها الكره بالرهبة .. والنفور بالفزع .. والالم بالحقد المرير .

الهوة تفغر فاها وتتلقفها كأخطبوط جائع وتطبق عليها بقوة وعنف ، وتطلق حولها أبخرة داكنة سوداء .. تلوث وجودها وتصبغ حياتها بلون جديد .. غير مألوف .. يؤذى العيون ويصدم النفوس .. وتجعل منها مخلوقة تاعسة لا تقوى على غير الزحف ، وسط كومة من الاوحال المقززة ، نحو غد لا تملك من أمره شيئا .. تتلاقفها أيد تبطش بمصيرها وتسحق كيانها وتستهين بوجودها الانساني .. ثم تلفظها كنواة مهملة لا يساوى وجودها شيئا .

ليت انها كانت تملك القدرة على أن تستبدل هذا النمط من الحياة .. أن تستعيض عنه بنمط آخر .. لا تمتهن فيه ولا يسحق كيانها ولا

يقوى أحد على أن يبطش بحياتها .. ليتها كانت تستطيع أن تفلت من قبضة هذه الاغلال التي تلتف حول رقبتها باحكام .. ليتها كانت قادرة على أن تفعل هذا وذاك .. حتى لا ترى أم حسن ذات القلب الملطخ الموصود .. التي تمتص شبابها ، قطرة بعد قطرة وتقذف بوجهها ، ثمنا لذلك ، بأقذع أنواع الشتائم والسباب .

ليت ان معجزة تحدث فتتحطم السلاسل التي تكبلها ، الواحدة منها بعد الاخرى ، حتى يتيسر لها الافلات من هذا الطريق الذى تضطر أن تسلكه كل يوم ، وتلتقي فيه ، على الرغم منها ، بذلك السائق السليط الذى لا تطيق أعصابها المرهقة احتمال مداعباته الممجوجة التافهة .

لو أن آفاقا اخرى تفتحت أمام قدميها .. لاصبح في مقدورها أن تمزق كل صفحة من صفحات ماضيها المرغ .. أن تسلك السبيل الذى لا يعترضها فيه مخلوق كصاحب الوجه الكالح المتبلد الذى لا ينفك عن ملاحقتها كلما رآها تتعثر فوق أرصفة الساحة الكبيرة .. لكي يسخر من آلامها ويخرج من بين شفتيه الغليظتين فحيحا أصفر لا تعي منه غير جملة واحدة .. لم تتغير في يوم من الايام « درهمين .. لو أوديج للمركز ...»

وكالملسوعة تنتفض نجية عندما تنبعث هذه الصورة في مخيلتها بالامس استطاعت أن تفلت من يديه بشتى الحيل والمعاذير وهي على ثقة ويقين بأنه اليوم لن يقبل منها عذرا ولن يترك سبيلها قطعا .

لقد أشار الى ذلك بالامس وهو يقسم لها «بشرفه» .. وكل الدلائل تشير الى انه سيبر بقسمه ان وقعت عيناه عليها هذه المرة ..

واوشكت قنينة الكوكا ان تفلت من بين اصابعها قبل ان تضعها في يد العجوز الطيب .. عندما وقفت سيارة باص كبيرة انحسرت بابها الامامية عن شخص كانت رؤيته تثير في نفسها مزيجا من الشعور بالالم والاشمئزاز .

لقد مرت بها خلال الاعوام التي عاشت فيها وهي تعانق الظلام نماذج بشرية عديدة .. اقذع من هذا المخلوق لسانا وأكثر منه امعانا في السخرية

بالآمها وبالام الاخرين .. ولكنها لم تحس نحو واحد من اولئك بالكره والنفور بمثل ما تحس به نحو هذا المخلوق . وهي لا تستطيع ان تميز الدوافع الحقيقية التي تبعث مثل هذه المشاعر في نفسها ..

ربما كان ذلك لتفاهة الكلمات التي تنبعث من الفجوة الكائنة بين شفتيه المتشققتين ... على شكل سيل جارف جارح او ربما كانت رؤيته تثير في اعماقها ذكرى غير طيبة لابد ان تكون مرتبطة بجانب من ماض تود لو تندك معالمه وتمحي من مخيلتها صوره ، وتتقطع ، اربا اربا ، حيوطه التي حملت معها المأساة التي تعيشها اليوم .. أو ، من يدري ؟ لعله يذكرها بمخلوق آخر كان أول من فتح لها ابواب هذا العالم المظلم الذي تحيا بين جدرانه اليوم .. ودفعها الى هذه الهوة التي تلعق أوحالها بالم مميت ..

ولم تستطع أن تمتلك مشاعرها او تقف على قدميها عندما رأته وهو يقفز ، كالأرنب ، من سيارته .. ويتقدم نحوها بخطوات غير متزنة .. وفي عينيه يلمع بريق ماكر .. وعلى شفتيه يرقص شيطان .. كانت تشعر في تلك اللحظات القلائل التي أعقبت استيعابها لذلك المشهد بان مجموعة من حراب مسمومة تسدد الى صدرها وانها مخالب تمتد لتمزق احشاءها شر ممزق .. فاوشكت ان تفقد سيطرتها على اعصابها وان تطلق من بين شفتيها صرخة رعب مدوية .. ولكنها استطاعت ان تتمالك نفسها قليلا وان تخنق تلك الصرخة قبل ان تفلت .. واستدارت لتنطلق بعيدا عن هذا الوجه الذي يستفز مشاعرها ويزرع في اعصابها الرعب والنفور ..

ولكن أرض الفلكة الكبيرة كانت قد انشقت في هذه اللحظة عن مخلوق آخر ان تكن رؤيته مألوفة لديها الا انها كانت مقرونة بمزيج من الفزع والنفور دوما ..

لم يكن هذا المخلوق غير صاحب الوجه الكالح المتبلد .. كان متجها نحو سائق الباص الكبير وبين يديه يتحرك دفتر صغير ، ومن بين شفتيه يندفع سيل من سباب لم يلبث ان انقطع فجأة عندما تلقفتها عيناه وهي تهم

بتغيير وجهتها استعدادا للتوسل باذيال الفرار قبل ان ينبعث الى اذنيها ذلك الفحيح الاصفر الذي اعتادت ان تسمعه منه وقبل ان يتعين عليها الوقوف بين يديه كمجرم ينتظره اقسى عقاب ودون ان يستطيع النطـــق بحرف واحـــد ..

كانت تعرف ان الافلات مرة او مرتين لن يكون كفيلا باشاعةالاستقرار في نفسها ولن يعمل على اقتلاع جذور القلق والمهانة من حياتها .. ولن يقطع الصلة بينها وبين هذه الحبال التي تلتف حول رقبتها بضراوة واحكام ولكنها كانت كمن يتوسل باتفه انواع العلاج للتغلب على وباء خطـير .. وقفزت من الرصيف بخطوات متعثرة .. ورأسها مازال مشدودا الىالخلف .. وتريثت عند مؤخرة الباص الكبير .. قبل ان تخطو الى الامام .. كان ذو الوجه الكالح مايزال مقبلا نحوها وقد اخفى الدفتر الصغير في جيبه ، وحذاؤه الكبير يضرب ارض الرصيف بقوة وتحد .. وعيناه الماكرتان تبرزان الى الامام ككوتين يلتهب في اعماقهما حقـــد ممقوت .. وشفتاه الغليظتان تلتصقان ببعضهما بشدة واصرار .

كانت اعصابها تشد عليها اكثر من يد .. وثمة ستار احمر كثيف يهبط فوق عينيها المرتعبتين .. وثمة اصوات مبهمة مرعبة تطن في اذنيها .. وبدت وكأن كل شيء قد اختلط عليها فجأة .. فلم يعد في وسعها أن تعي شيئا مما ترى .. ولا ان تميز شيئا مما يدور حولها ..

كانت ضربات الحذاء الثقيل فوق بلاط الشارع تئز في اذنيها اريزا يشبه عويلا ينطلق وسط الظلام ، وصورة الوجه الكالح المتبلد .. تتسع وتتسع امام عينيها بسرعة فائقة وكأن يدا قوية تدفعه داخل عينيها .. ومرة ثانية اوشكت ان تطلق من اعماقها المضطربة صرخة مدوية .. لكنها احست بان شيئا ما يضغط حنجرتها ويجثم ثقيلا فوق صدرها فيكتم الصرخة ويخنقها .. وارعبها ان تجد نفسها في مثل هذا الحال .. فلم تتمالك نفسها وبدأ جسمها يهتز وكأنها تقف فوق أرض مزروعة بالالغام .. وتسارعت الاشباح

في رأسها متراكضة متدافعة ..

وتجسمت خيوط المأساة كلها ، هكذا مرة واحدة ، امام عينيها اللتين فقدتا قدرة التمييز .. وصاحب الوجه الكالح مازال يضرب بقدميه الثقيلتين أرض الرصيف بتحد وعناد .. ويتقدم نحوها ببطء مخيف خطوة بعد خطوة .. وسيارة الباص الكبيرة تنتصب الى جانبها بتحد ممقوت..وصاحبها ينظر نحوها بصفاقة .. وشارباه الكثان يهتزان فوق شفتين تنبعث من خلالهما الفاظ لم يعد في مقدورها ان تعي أو تسمع منها شيئا .. واصبحت ضربات قلبها مجموعة من مطارق تتهاوى الواحدة منها فوق الاخرى بسرعة واضطراب .. وأوشكت ، مرة اخرى ، ان تصرخ وتستغيث .. ان تطلب النجدة .. حتى من الشيطان ..

ومرة أخرى وجدت نفسها عاجزة ان تخرج صوتا واحدا من حنجرتها المتورمة .. احست بان شيئا ما يمنعها .. يحول بينها وبين القيام بذلك .

وشعرت بالدنيا تتلون امام عينيها .. وبغتة ضربت ارض الشارع بقدميها .. وتطايرت من بين شفتيها المتيبستين لعنات مكتومة تنصب فوق رؤوس كل الذين ساهموا في نسج هذه الخيوط التي تلتف حولها باحكام وضراوة .. وتضع مأساتها .. ودون وعي اندفعت الى الامام وكأن ايدي خفية تدفعها من الخلف .. واطراف عباءتها السوداء تخفق في أثرها .. كعلم في يد جندي يلوذ ، في معركة خاسرة باذيال الفرار ..

وفي اللحظة التالية كان يتردد في أرجاء الفلكة الكبيرة انين موحش رهيب .. منبعث من تحت عجلات سيارة ضخمة .. وفي اللحظة ذاتها كانت هناك ذراعان قويتان تتحركان بسرعة وتديران مقود السيارة بكل قوة .. وثمة قدم كبيرة تضغط بشدة فوق الفرامل .

وتهمد حركة السيارة ويخيم عن الفلكة الكبيرة صمت رهيب .. ويتراكض بضعة اشخاص .. وفي عيونهم فزع وتساؤل .. وفوق بركة كبيرة من دم قان كانت تتمدد نجيعة وهي ترسل من يمينها نظرات راحت

تتعثر فوق الوجوه التي تطل عليها من خلال الكوة المتراقصة امام اهدابها المتراخية .. وكأنها تريد ان تستقر فوق ذلك الوجه الذى كانت تغلب عليه صفرة الفزع .. لتقول لصاحبه بنبرة وادعة ..

ـ لا تخف أنك لم تقترف ذنبا .. لقد أسديت معروفا كبيرا عندما وضعت في يدى هذا الخيط الاخير في المأساة ..

وعندما كانت سيارة الاسعاف تبتعد عن الفلكة الكبيرة وهي تئن أنينها الموحش الرهيب .. كانت قطرتان من الدموع الساخنة تنحدر فوق خدى الرجل العجوز الذى كان يقف داخل الكشك الصغير ..

رَجُلٌ .. وَامْرأة .. وَفَرَاغ

عرفها قبل ان يراها ..

وعرفته قبل ان تراه ..

كان قد تعدى الثلاثين ، تقف الى جانبه زوجة وطفلان .. وكانت قد تخطت الثلاثين أيضا .. ولكنها ما زالت تنتظر ، بحنين طاغ ولهفة غامرة ، ان تنفرج الباب عن اصبع يوميء اليها وصوت يدعوها ويد تقودها الى بيت يقف فيه الى جانبها رجل طالما رسمت له في صدرها المغلق صورا احتفظت بها لنفسها امدا طويلا .

وتم ذلك التعارف بينهما على يد الزوجة الساذجة الطيبة .

كانت تنقل لها في لحظات انطلاق وتفتح .. صورا غير عابرة عن انسان .. ورجل ...

انسان لم يكن لغير الطيبة ، باروع اشكالها ، مكانا في قلبه ، ورجل يستقر في اعماقه عملاق كبير لا يجد في حب الزوجة وحنانها .. ما يصرفه عن التطلع الى سواها .. وكانت تنقل له في لحظات انطلاق وتفتح أيضا صورا براقة لانسانة يكمن وراء اندفاعها في فرض سيطرتها على كل من في البيت وكل ما في البيت ..

تمرد قد تجد فيه متنفسا لما تحس به من جوع في العاطفة .

وتقابلا ... وجد كل منهما نفسه امام الاخر ..

كان ذلك عندما عاد ذات يوم الى البيت .. ليجدها امامه صورة من الصور التي رسمها لها في مخيلته .

وكان لقاءا صامتا اذا ما اسقطنا من الحساب تلك التحيات المقتضبة التي طفقت تتعثر ، لحظة من الزمن ، بين لسان متلعثم وشفاه متيبسة .. وحنجرة يتحشرج فيها فحيح غير مألوف .

وانتهى اللقاء .. انتهى هكذا بسرعة وبساطة .

انتهى .. كما ينتهي الفصل الاول من مسرحيـــة تستأثر باهتمام المشاهدين ـ منذ المشهد الاول .

وعندما كانت زوجته توصد خلفها الباب .. كان هو يحس هكذا بسرعة وبساطة أيضا بأن يدا كبيرة تمتد الى قلبه الهائج لتوصده عـــلى صورة استقرت فيه كما تستقر صورة جميلة داخل اطار أنيق .

وانتفض العملاق الرابض في اعماقه ورفع رأسه ومد ذراعيه الكبيرتين ليحتضن بشغف وتلهف الصورة التي استقرت هناك .. في أعماق ذلك القلب الهائج المرتجف .

وارتجف الذراعان .. وارتجفت معهما الصورة عندما حملت اليه أسلاك التليفون ذات يوم صوتا تنبعث في نبراته العميقة الثاقبة رنة متراقصة تشيع موجة من الاغتباط في القلب قبل أن تنساب بعذوبة الى الاذن .

وسألته .. سألتـــــه عن شيء لم يستطع أن يتميزه .. ربما كان السؤال عن زوجته .. عن سبب تخلفهـــا عن الزيارة .. أو ربما كان استفسارا عن أشياء اخرى .. أشياء قد لا يستطيع أحد أن ينكر بأنهـــا .. تافهة .

ولا يدري بماذا أجابها ، ولا يتذكر كيف أنهى حديثه الاول معهـــا .. أو كيف أنهت حديثها معه بالضبط .. انه لا يعرف ولا يتذكر من كل ذلك شيئا .. لان العملاق كان أنذاك يتململ في أعماقه ويمد ذراعيه الكبيرتين القويتين ليحتضن الصورة بعنف وقوة ونهم ..

وعاد في اليوم التالى .. عاد وهو يحمل أقوالا لزوجته ظل يستعيدها بينه وبين نفسه مرات ومرات حتى لا يسقط من بين شفتيه اللتين يداهمهما الجفاف سريعا حرف واحد .. أو حتى لا يغرب عن باله الذي كثيرا ما

يصيبه الكلال .. شيء مما يريد أن يقوله لها .

وهكذا أخذت الاتصالات عبر أسلاك التليفون تتكرر وتتتابع ، وبدا الفراغ الذي كان يحس به وكأنه يوشك أن يمتلىء ، ولاح العملاق المتمرد وكأنه يريد أن يخلد الى السكينة وأن يهدأ هدوء من يستسلم لنشوة مفاجئة .. غامرة .

وفي كل مرة كان يود لو يحدثها عن ذلك العملاق الذي لا يرضى أن يجد في حب الزوجة وحنانها ما يصرفه عن التعلق بغيرها ولكنه في كل مرة كان يحس وكأن أقفالا ثقيلة تتدلى من شفتيه وتحول بينه وبين الافصاح عما يريد .. فيتحول الى الحديث عن أشياء اخرى قد تكون تافهة .. أشياء كانت تضحك لها ضحكة من يحس بأن محدثه يتوارى خلف غلالة لم يستطع أن يدرك بأنها رقيقة لا يمكن أن تحميه من مواجهة أمر مفضوح .

وفي كل مرة كانت تريد أن تحدثه عن تلك الصورة التي تحتفظ بها منذ أمد طويل ، في قلبها المغلق ، ولكنها كانت في كل مرة أيضا تشعر بأن شجاعتها التي لم تكن تخونها في يوم من الايام تتخلى عنها وتخذلها على غير ما هو مألوف .. وان الكلمات التي تنساب من بين شفتيها بقوة طوال النهار تتعثر على تلك الشفتين فتنقلب ، بعد جهد كبير ، الى تمتمات تكاد تكون مبهمة .. فيضحك منها ضحكة من يعرف بأن محدثه يغالب قوة يعرف بأنه لا يستطيع التغلب عليها ، فيتراجع قبل أن يبدأ النزال .

وتقابلا مرة أخرى .. وزوجته تعد الايام على أصابعها لتقدم له ، بعدها ، مولودا جديدا .

ووقفا وجها لوجه ـ هذه المرة .. وكانت وقفة مشهورة ـ لا يمكن أن تنسى .. فشملته هذه المرة بنظرة ذات معنى .. وشملها بنظرة تحمل أكثر من معنى .. وقرأت على صفحة وجهه كل ما تستطيع أن تقرأه امرأة في وجه رجل يمر بأزمة مستديمة .. أزمة شعور بالفراغ .. لا تقع

مسؤوليته على عاتق زوجة لم تضع في يوم من الايام حدا لذلك الفيض المتدفق من الحب الذي يزدخر في قلبها .

وقرأ في وجهها كل ما يستطيع أن يقرأه رجل في وجه امرأة تضطرب في أعماقها أحاسيس مشبوبة ظلت محتجزة ومحبوسة أمدا طويلا .. تهم الان بالانطلاق ولكنها تخشى أن يحدث انطلاقها دويا يصك الاسماع .

وصرّ الباب المغلق في صدرها وأوشك أن ينفتح هكذا مرة واحدة على مصراعيه ليستقبل سهاما غير طائشة تريد أن تنطلق بقوة وعنف لتجد مستقرا لها في قلبها الذي ظل مغلقا حتى الان .. ومنذ عهد بعيد .

وتأرجحت أمام عينيها الجائعتين خطوط خلابة رسمتها يد ذلك العملاق الرابض في أعماقه تريد أن تمتد هكذا مرة واحدة لتقتحم بقوة واصرار الاسداف المنخوبة التي كانت تحيط بقلبها حتى اليوم .. لتمنع عنه النور الذى كانت تتعلق به وتتشوق اليه .

وتصاعدت من أعماقها ألسنة من لهب أوشكت أن تلتهم تلك الاسداف وأن تخلى السبيل لذلك السيل العارم الذى غزا قلبها في طرفة عين . وخيل اليها بأنها أوشكت أن تحتضن الصورة التي كانت تحلم بها حقبة طويلة من الزمن .

وشعرت برأسها وهو يتثاقل .. ويدور ، وأحست بالارض وهي تهتز وتميد تحت قدميها فأطبقت عينيها وكأنها تريد أن تتحاشى رؤية شيء ما .. وراحت تلتقط أنفاسها بصعوبة كمن يوشك على الاختناق .. وعندما فتحتهما وجدت أمامها الزوجة الطيبة وهي ترمقها بشموخ واباء قد يكونا متعمدين .. وفي كل خلجة من خلجاتها قرأت أشياء كثيرة .. كثيرة جدا كانت خليطا من طيبة وسذاجة واخلاص .. و .. وانطواء على ألم خفي مكبوت ..!

وانتفضت كالمأخوذة بغتة .. وانتفض في أعماقها شيء جديد .. وعلا صدرها وهبط بسرعة .. ثم علا وهبط مرة اخرى .. ومرات ..

وبدا وكأن شيئا ما في ذلك القلب يريد أن يتلاشى ويخبو ... كأن قطعة كبيرة من الثلج تريد أن تطفو فوق صدرها الملتهب . وتملكتها رغبة ملحة في أن تضرب أحدا .. تضرب نفسها .. أن تمزق كل ما في قلبها .. أن تحطم تلك السهام التي تريد أن تنطلق بقوة واصرار لتجد مستقرا لها في ذلك القلب الذى ظل مغلقا حتى اليوم .

ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك .. لم تضرب نفسها .. لم تمزق شيئا مما في قلبها ولا مما يقع في متناول يدها .. لم تحطم واحدة من تلك السهام .. بل انكبت على الزوجة الطيبة الساذجة تطبع على جبينها المشرق الناصع قبلة حملتها كل ما في قلبها من مشاعر الحب والحنـــان والاعتذار الصامت ..

وكان منزويا ـ يزدرد ريقه بصعوبة ويراقب المشهد بتأن مذهل .. وترقب مريع .

واستطاع أن يلقي على وجهها نظرة فاحصة .. وفي لحظة واحـــدة استطاع أن يغوص الى أعماقها .. وهاله أن يجـــد صفحته المجلوة آثارا لمعركة خيل اليه بأنها لابد وأن تكون دائرة بكل ضراوة ، هناك في تلك الاعماق التي كانت ، كما استطاع أن يدرك ، تموج بالاضطراب والقلق وتصطرع فيها العواطف المتأججة المتضاربة .

وخيل اليه أيضا بأنه يستيقظ هكذا فجأة من نوم هانىء جميل على حقيقة مرة . وانطلقت من أعماقه صرخة هول مكتومة .. وارتسمت على وجهه علامات مفضوحة من الحيرة والقلق والقنوط والتساؤل المريب .

لم يكن الان رجلا تخطى الثلاثين يضع الى جانبه زوجة وطفلين ..! بل كان يبدو فتى .. فتى كبيرا .. يخذله الانفعال عندما تقع عيناه على امرأة تلتصق صورتها بقلبه بكل قوة وانفعال .

وتململ العملاق من جديد .. وراح يسدد قبضته الضخمة نحو تلك الصورة التي كانت تستقر في أعماقه كما تستقر أية صورة جميلة داخل اطار أنيق وكأنه يخشى أن يفلت من بين يديه ذلـك الشيء الساحر

النفيس .

وانتقل ميدان المعركة الى رأسه الذي كانت تطارد داخله أشباح دون كيشوتية تحمل سيوفا خشبية تنازل بها الهواء والطواحين .

وعندما استفاق من أحلامه وجدها تقف هناك فوق عتبة الباب وهي تهم أن تدلف الى الطريق .. وقبل أن تمد يدها نحو قبضة الباب كانت تفتح عينيها الحالمتين وتلقى من أعماقها الفائرة على وجهه المتشنج نظرة خاطفة كانت تتوارى خلفها أطياف متنمرة .. حبست أنفاسه في صدره وسمرت قدميه في الارض ، ثم .. تحركت يدها فوق المقبض .

وغادرت البيت وهي تصفق الباب خلفها بشدة .. وكأنها لا تريدها أن تنفتح مرة اخرى .

وانقطعت عن الزيارة .. بعد ذلك ..

لم تعد الى البيت وأسلاك التليفون لم تعد تحمل اليه صوتها الذي كانت تنبعث من نبراته العميقة الثاقبة رنة متراقصة تشيع في القلب موجة ، من الاغتباط قبل أن تنساب بعذوبة فريدة ساحرة الى الاذن .

والفراغ الذي كان يوشك أن يمتليء بدا وكأنه يريد أن يتسع مرة اخرى .. والعملاق الذي كان يريد أن يخلد الى السكينة .. لاح وكأنه يريد أن ينتفض ويتمرد من جديد .

وتمنى لو يسأل زوجته عنها .. تمنى لو تحدثه هي عن أي شيء تافه يخصها .. لو تضع بين يديه جوابا لسؤال أو سؤالين من الاسئلة التي تزدحم فوق شفتيه وتصطرع في أضلعه .

ولكنه كان يلمح في عينيها بريقا هادئا خافتا يثنيه عن عزمه ويخنق الكلمات في صدره ... ويبعث الى رأسه بالدوار .

وكان ما يزال يغالب ، بصمت وسكون ، مثل هذا الدوار مصحوبا بصوت الباب وهو يصطفق بشة عندما عادت زوجته من أول زيارة قامت بها بعد أن وضعت مولودها الجديدة عادت لتحدثه عنها .. لتقول له شيئا

أوشك أن يقتلع الصورة الجميلة من داخل الاطار الانيق ... ويبعث القشعريرة الباردة الى أوصال العملاق الكبير الرابض في أعماقه .

لقد تحقق حلمها اذن .. وجاء ذلك اليوم الذي كانت تنتظره بحنين طاغ ولهفة غامرة . لقد انفرجت البـاب عن اصبع يومىء اليها وصوت يدعوها .. ويد تريد أن تقودها الى بيت يقف فيه الى جانبها رجل طـالما رسمت له في صدرها المغلق صورا ظلت محتفظة بها منذ عهد بعيد .

ولاول مرة في حياته لمح في أعماق عيني زوجته الوادعتين بريقـا غريبا أخاذا كانت تنبعث منه أسهم حادة توشك أن تنطلق لتمزق الحجب المهلهلة التي كان يتستر خلفها .

وعندما كانت تضع في يده المذعورة بطاقة الدعوة لحضور حفلة عقد القران استطاع أن يعرف السر الكامن خلف ذلك البريق الاخاذ الذي كان يلتمع في اعماق عينيها الوادعتين ..

الثقب الكبير ١

وقفت أم زهرة تحت الصفصافة الكبيرة تحكم شد فوطتها وعصبها وتمسح بأطراف عباءتها القديمة العرق الذي كان قد يتجمع بغزارة فوق جبينها المتغضن وشرع ينحدر نحو عينيها الصغيرتين الحادتين •• ورفعت من الارض (العلاكة) المملوءة بالخضر والفواكه واللحم وبعدد من قنـــاني الكوكا كولا •• وواصلت سيرها من جديد تحت أشعة الشمس التي كانت تلهب أرض الشارع على الرغم من ان النهار كان لم يزل في ساعاته الاولى

كانت سيدتها قد أكدت عليها ، كما تفعل في كل مرة ، أن لا تنسى قناني الكوكا الذي تفضله سلوى على سواه من سائر المشروبات وتحرص على أن تحتفظ بعدد منه في الثلاجة ليكون في متناول يدها طوال اليوم • وأم زهرة لا يغيظها أن تلقى سلوى كل هذا الاهتمام والدلال من امها •• فهي ابنتها ووحيدتها •• ولكل أم الحق في تدليل ابنتها على النحو الذي تشاء •• بيد ان الذي يحز في قلبها ويشيع الالم الممض فيه هو انها ، وهي الام لابنة وحيدة تحتل من قلبها المكانة التي تحتلها كل فتاة من قلب أمها لم تستطع لحد الان أن تضع ابنتها زهرة في المكانة التي تريدها •• لم تستطع أن تفعل شيئا من أجلها •• شيئا يمكن أن يدخل المسرة الى قلبها الصغير ويوفر لها حياة ان لم تكن شبيهة أو مماثلة للحيـــاة التي تعيشها سلوى •• فانها على أي حال ينبغي أن تكون أحسن من هذه الحياة التي تحياها الان على أقل تقدير •

وصعدت أم زهرة زفرة محرقة من أعماق قلبها المثقل بالهموم ، وعدلت بيدها النحيلة عصبتها ومسحت حبات العرق المتجمعة فوق جبهتها

المتغضنة ودلفت الى الدار الكبيرة وعيناها عالقتان بامرأة على درجة كبيرة من الاناقة تكاد تكون في مثل سنها .. كانت تمر في تلك اللحظة من أمام البيت وهي تحمل في يدها مظلة حريرية تقيها حرارة الشمس المحرقة وتدفع بالاخرى عربة صغيرة يتكأ في مؤخرتها المظللة طفل ممتلىء الجسم منتفخ الوجه تلوح عليه امارات الصحة وتحيط به مظاهر اليسر والنعمة .

واتجهت أم زهرة الى غرفة المطبخ الواسعة ووضعت الفواكه وقناني الكوكا في الثلاجة الكبيرة .. وشرعت تعد العدة للبدء بعملية اعداد الطعام التي تتكرر كل يوم وهي ترقب بعينيها اللتين تتكسر فوق أهدابهما صرخات مكتومة من حزن دفين .. ابنتها زهرة التي كانت منهمكة بكل جد وحماس في غسل الاواني والصحون وترسل اليها بنظرات مشبوبة تفيض ألما وحسرة جعلتها تشعر بخيط من نار يرتسم أمام عينيها وينفذ الى أعماقها ليلهب احاسيسها ويضرم مشاعرها .. فترتسم في مخيلتها صورة ابنها الصغير الذي كوى قلبها عندما اغمض عينيه الضاحكتين الى الابد .. في أعقاب تلك الكارثة التي نزلت بهم على اثر اصابة الاب بمرض مفاجيء أعاقه ، وما زال يعيقه حتى اليوم ، عن كل حركة وعمل . لقد كان لتلك الكارثة وقع أليم على نفسها أوشك أن يفقدها صوابها ويجعلها فريسة لآلام نفسية مريعة ، كادت أن تودي بأعصابها .. وأصبح الافق الواسع يضيق أمام عينيها ونور النهار الساطع ينقلب الى ظلمة حالكة موحشة . وراحت تتلفت كالمخبول لا تعرف ماذا تصنع لكي تواجه هذه المحنة .

زوجها ينام هناك في احدى ردهات المستشفى ولا تدري أي مقدار من العناية والاهتمام سيكون نصيبه من بين اولئك الذين يرتمون فوق أسرة لا يفتأ يتعالى منها أنين متواصل في الليل والنهار .. وهي وابنتها زهرة وطفلها الرضيع .. يقاومون الاعاصير في أعماق تلك الصريفة التي أوشك أن يتداعى ركن من أكبر أركانها .. وينظرون من خلال شقوق سقفها المظلم الواطيء الى السماء لعل يد العطف والرحمة تمتد نحوهم ..

وتصنع من أجلهم شيئا .. وتبعث لهم ما ينقذهم من المحنة التي توشك أن تطبق عليهم باصرار .

واهتزت أركان الصريفة هزة عنيفة اخرى .. عندما أز اعصار على مقربة من الطفل الصغير .. وفتح الطريق أمام الموت الذي تسلل بهدوء الى الرضيع ليسلبه الحيـــاة ويترك في قلب أمه حسرة لا تشفى وجرحا لا يندمل .

ونفخت هذه الذكريات المؤلمة في أكوام الرماد التي كانت تستقر في قلب أم زهرة وتخفي تحتها نيرانا غير خابية .. فزفرت زفرة محرقـــة ومضت تستعيد صورا أخرى من المراحل التي أعقبت الكارثة . فرأت الحياة وقد أخذت سبلها تضيق بهم شيئا فشيئا ووجدت نفسها وهي ملزمة بالنزول الى المعترك لتلعب دورها في عملية الانقاذ وتأخذ على عاتقها مهمة توفير لقمة الخبز للعائلة الصغيرة المنكوبة قبـــل أن تذروها رياح البؤس وتعصف بها أعاصير الجوع والعوز .

ولم يكن تنفيذ هذه المهمة بالنسبة لام زهرة بالامر اليسير .. لان الدروب لم تكن في يوم من الايام مفروشـــة بالزهور .. ولان الابواب الكبيرة لا تلين بسرعة تحت قبضة الضعفاء .

وعندما بدأت سياط المحنة تلهب ظهرها بشدة وأوشك اليأس أن يجد سبيله اليها .. بدأت تتفتح أبواب الرجاء أمامها .. ويلوح لها الفرج مبشرا بمرور العاصفة .. وانفراج الازمة .

لقد بدأ صاحب الارض المجاورة لصريفتهم بتشييد دار فوق قطعة أرضه الواسعة فاحتاج الى من يقوم بحراسة المبنى .. وكان أن وجـــد ضالته في عائلة أم زهرة .. فأوكل اليها هذه المهمة وأمره الى الله .

وعندما ارتفع البناء فوق قطعة الارض الكبيرة واستحالت الارض الى قصر كبير .. انتقلت أم زهرة ومن معها الى احدى زوايا القصر الخارجية لحراسته ليلا .. وخدمة سكانه نهارا .

وهكذا انجلت العاصفة وزال ذلك الكابوس الذي كان يجثم فوق

صدر هذه العائلة الصغيرة ويهددها بالجوع والعوز والحرمان • لقد أصبح المسكن مضمونا •• واللقمة ميسورة •• أما المستقبل لا بأس عليه ولا خوف منه فأمره ، دون شك •• رهينة بيد الله

وترفع أم زهرة رأسها نحو السماء لتعرب عن شكرها وامتنانها • ولكنها في كل مرة تفعل ذلك تحس ببقايا وخزات في أضالعها تمنعها عن المضي في الاعراب عن آيات ذلك الشكر والامتنان •• فلا تلبث أن تخفض رأسها مسرعة ولتنطوي على نفسها وتجتر تلك البقايا العالقة من الآلام بصمت وسكون •

ان أم زهرة ما زالت تتألم لامرين يقضان عليها مضجعها دائما ويقلقان بالها وينغصان عليها نعمة الراحة النفسية التي تكاد تتمتع بها •• بعد تلك الايام العصيبة التي مرت بها •• أولهما المصير الذي آل اليه زوجها الذي لم يكن ليكل من العمل في يوم من الايام •• اذا سد في وجهه باب فتح لنفسه ، في اليوم التالى ، بابا آخر يلجه بكل همة ونشاط واتكاله على الله ليلتقط الرزق الذي ينتظره خلفها •• فهو يبيع الحب يوما ويصنع الدوندرمة الرخيصة يوما آخر •• يبيع اللبن آنا ويقبل على بيع المجلات القديمة آنا آخر •• وفي كل مرة كان يعود الى الدار وهو يطبق براحتيه على مورد ان كان نزرا يسيرا •• فانه ، يكفل له ولعائلته الصغيرة القانعة حياة لم تكن تحسب بأنها ثقيلة الوطء •• بأي حال من الاحوال • صحيح انها تعمل الان من أجل توفير لقمة العيش عوضا عن زوجها •• الا ان ما يحز في نفسها هو أن يكون هذا الرجل الذي لم يعرف الكلل أو التراجع في حياته •• جليس البيت عاجزا عن القيام بالدور الذي يشرف كل رجل ـ مثله ـ أن يقوم به •• تلك مشيئة الله •• ولا مرد لمشيئته •

أما الامر الآخر الذي كان يشيع الالم في قلبها فهو يتعلق بابنتها الوحيدة زهرة •• انها تعمل معها طوال النهار في تنظيف الكاشى وكنس الغرف ومسح الاثاث واعداد أواني الطعام وغسلها •• الى جانب تأمين طلبات سلوى التي لا تكبرها الا قليلا ••

وأم زهرة لم تكن تريد لابنتها أن تدخل الحياة من هذه الباب .. لم تكن تريد لها أن تعيش وهي مشدودة مدى العمر الى تلك الصريفة التي لا ينفذ اليها ضوء ولا ترفرف في جوانبها نسمة من هواء .. ما تريده أم زهرة لابنتها كان شيئا آخر .. فهي تسيطر عليها رغبة أكيدة ثابتة في أن تجعل من ابنتها مخلوقة جديرة بالحياة .. انها تشعر شعورا عميقا بأن ابنتها زهرة ينبغي أن تكون انسانة اخرى أوفر حظا من أبويها .. وأسعد حالا منهما .. تريد لها أن تحتل مكانة غير المكانة التي تحتلها أمها الان

ومنذ الايام الغابرة كانت أم زهرة ترغب في أن تلحق ابنتها زهرة بالمدرسة لتتعلم وتتفتح عيناها (على أمور الدنيا) وتعرف أين تضع قدمها في الحياة .. كانت تتمنى ، على الاقل ، أن ترى ابنتها ، ابنتها الوحيدة زهرة ، التي تمضي يومها بين كنس وغسل وتنظيف .. مرتدية صدرية سوداء ذات (ياخة) بيضاء .. يلتف حول خصرها الاهيف الرقيق حزام أبيض من النايلون ويتوج رأسها ذا الشعر الاسود المنفوش شريط أبيض تسعى أم زهرة أن تجعله ينتصب فوق رأسها كفراشة مجنحة .. تحفق بأجنحتها البيضاء .

ولكن الكارثة التي نزلت بهم على اثر اصابة الاب بالشلل هي التي جعلتها تنصرف عن التفكير بزهرة وبحظها من الحياة . لقد كانت الضربة من القوة بحيث أنستها حتى التفكير بهذا الامر المهم .

وعندما لاح الفرج مبشرا بانجلاء الغمة ومرور العاصفة بسلام .. وتم انتقال العائلة الصغيرة الى بيت أم سلوى للخدمة فيه والقيام بحراسته عادت الآمال اللذيذة تداعب مخيلة أم زهرة من جديد .. وعاد يشغلها التفكير في مستقبل ابنتها وفي فتح سبل جديدة للحياة أمام قدميها الصغيرتين اللتين انتقلتا من أرض الصريفة المرطب الى مطبخ أم سلوى .. حيث العمل الذي يقصف ظهرها الطري اللدن . ويورث جسمها الصغير التعب والانهاك .

وقد زاد من اغتباط أم زهرة وقوى من عزيمتها ما لمسته من أم

سلوى من تشجيع وترحيب واستعداد للمساهمة في النفقات التي كان من غير اليسير على أم زهرة أن تقوم بها وحدها عند ارسال ابنتها الى المدرسة.. لان الكارثة كانت قد خلفت أعباء ثقيلة من ديون يستلزم ايفاؤها وقتا ليس بالقصير .

وهكذا طفقت أم زهرة تعد ، بلهفة وعدم اصطبار ، أيام العطلة الصيفية ، يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة .. ألا لعنة الله عليها .. ما أطولها .. وما أثقل أيامها . ليتها ، هذه العطلة اللعينة ، تمر هكذا دفعة واحدة .. فلا يكون هناك ثمة حاجة لانتظار ممل ثقيل .

ان موجة من الغبطة والسرور بدأت تغزو قلبها وتبتلع الآلام التي بدأت تتراكم منذ أن أقعد المرض (أبو زهرة) في زاوية من البيت دون أن يقوى على القيام بعمل أو الاتيان بحركة .

ولكن هذه الموجة لم تلبث أن فترت حدتها وكأن يدا امتدت وأهمدتها في صدرها . شيء واحد بدأ يشغل بال أم زهرة وهي تودع تلك الغمرة من النشوة والاغتباط .. لقد اخذت تلمس تغيرا ملحوظا في سلوك أم سلوى .

منذ حوالى الاسبوع .. منذ ذلك اليوم الذي أرسلت فيه زهرة لكي تشتري الصمون من المخبز الواقع في الجانب الاخر من الشارع .. فكان أن عادت وامارات من الفزع والخوف ترتسم فوق محياها الصغير .. لقد ضاع منها ربع الدينار الذي أخذته من أم سلوى .. كانت تمسك في يدها وهي خارجة من الباب .. وقد تكون دسته في جيب دشداشتها الفضفاضة أو ظلت ماسكة به في يدها وهي تعبر الشارع ، انها لا تذكر ذلك جيدا .. ولكن الذي تعرفه وتتذكره هو انها عندما افتقدته وهي واقفة عند المخبز لم تستطع أن تجد له أثرا لا في يدها .. ولا في جيب الدشداشة الفضفاضة.

وتروي زهرة بفزع بريء ، بقية القصة وعيناها مخضبتان بدموع ساخنة .. لقد أوشكت سيارة باص أهلية كانت تجري بسرعة جنونية أن تدهسها وهي تهم بعبور الشارع .. ولعل لحظة الرعب التي مرت بها

أنذاك .. هي التي تمخضت عن كارثة فقدان ذلك الربع الملعون . ولم يغب عن زهرة أن تقطع الشارع مرتين أو ثلاث مرات لتتفحص الارض وتمعن النظر في الحفر المتناثرة فوق الحديقة المهملة التي تشق الشارع العريض الى شطرين .. لعلها تعثر عليه مستلقيا هنا أو هناك .. أو في أي مكان من تلك الحفر التي تملأ الشارع منذ عهد بعيد .. ولكن كل محاولات زهرة ذهبت أدراج الرياح .. كما ذهبت تلك الوريقة الملعونة الخضراء .. دون ان تترك أثرا .

وكان من المتوقع ان يمر الحادث بسلام ـ غير أن أم سلوى طاب لها ان تنظر للأمر من زاوية اخرى ـ الذنب ليس ذنبها ـ ولكن يبدو أن الشيطان هو الذي همس في اذنيها بشيء ما .. ويبدو أن أم سلوى اصاخت للهمس جيدا واستقبلته بجدية غير متوقعة .. لانها ركبت رأسها فجأة .. ولم يكن لديها من الاستعداد ما يجعلها قادرة على اقناع نفسها .. بان الورقة الخضراء قد فقدت من يد زهرة ـ صحيح أن سلوى أكبر منها بقليل ـ لكنها لم يحدث لها أن اضاعت شيئا .. ان محفظتها عامرة دوما بالنقود .. وبالاوراق النقدية أيضا ـ لكنها لم تفقد شيئا لحد الان ـ لم يحدث لها أن فقدت فلسا واحدا ـ فهل من المعقول اذن ـ ان تفقد زهرة ورقة واحدة .. خضراء ورقة واحدة لا يمكن ان تفقد ولا يشعر بها الانسان ـ ان ذلك لا يمكن ان يحدث .. ولا يمكن ان يحدث قطعا .. أم سلوى لا تؤمن بحدوثه أبدا ـ وهي تعرف الناس أكثر من سواها ـ ولا يمكن ان تنطلي عليها الحيل ، هذا غير ممكن ..غير ممكن قطعا .. وليس في الامكان تصديق رواية زهرة .. أم سلوى لا تستطيع تصديقه بأي حال من الاحوال .. والامر كما يبدو ليس بهذه البساطة ـ لابد ان هناك شيئا معينا ـ أو تدبيرا تجهل تفاصيله أم سلوى من يدري ؟ على أي حال ان الشيطان لم يمت .. والحاجة تفعل كل شيء ..

وهكذا تضخمت المسألة عند ام سلوى ـ واصبحت تتقاذفها الهواجس والشكوك وتضرب اخماسا باسداس وترسم في مخيلتها خطوطا وتمحي

أخرى وتبعد احتمالا وتستدين احتمالا.. وفقدان الورقة الصغيرة الخضراء تشغل بالها .

وفي دوامة هذه الهواجس وجدت نفسها وهي تخشن القول لزهرة ولامها وتكيل لها الاتهام تلويحا وتصريحا .

واقسمت زهرة وهي تحاول أن تستبقي شفتيها في مكانهما بانها لاتعرف .. لا تعرف مطلقا كيف فقد منها ذلك المبلغ الملعون .. واين فقد ؟ وكيلها فيما تقول (العباس ابو راس الحار) . وتصلبت اعضاء ام زهرة وظهر الزبد على زاويتي فمها وهي تعطي كتفيها للسيد محمد .. وتؤكد بكل حرارة وايمان بان ابنتها لا يمكن أن تطمع في يوم من الايام لا في مثل هذا المبلغ التافه ولا في أي مبلغ آخر .. لانها حرصت على أن تزرع في نفس ابنها الاستقامة والاباء .. وهي اذ سهرت الليالي في تربيتها .. حرصت ان تشبع عينيها قبل أن تشبع بطنها .

وعندما رأت أم زهرة اصرارا من أم سلوى في موقفها وامعانا في التشكك بابنتها ارادت ان تعوض لها المبلغ ولكن أم سلوى صرخت واستشاطت غضبا واستنكرت منها هذه الجرأة وصرخت في وجهها .

ـ متستحين ؟ تحقريني هالمرة ؟ قابل انا معتازة .. لو بحال الربع دينار ؟ الربع والعشرة والعشرين كلهن فدوة لسلوى .. بلاكت مرة اللح اعرف شسوي ..

ومنذ ذلك اليوم ـ أجل منذ ذلك اليوم المشهود ـ وأم سلوى تحجم عن أرسال زهرة لشراء شيء من السوق .. وتنزل على وجهها ستارا كثيفا من العبوس ..

واستفاقت أم زهرة فجأة ـ من هذه السلسلة الطويلة من الاحـــلام المزعجة الكئيبة ـ وكأن عقربا صفراء قد لدغتها في مكان ما من قلبها الموجع الكسير فنفضت يدها بسرعة من الخضر التي كانت ماضية في تنظيفها .. ومدت يدها بقلق واضطراب وتطير الى جيب دشداشتها لتخرج ما تبقـى من الدينارين بعد ان اشترت حاجيات اليوم من السوق ..

وعندما دخلت ام سلوى الى المطبخ وجدت ام زهرة ـ في حالة مزرية من الهلع والانهيار .. كانت تزدرد ريقها بصعوبة ويدور في عينيها فزع مرعب وعلى وجهها صفرة باهتة .. وفي كل جزء من جسدها تسري رعشة تمتد الى يدها الممسكة ببطانة جيبها وعيناها ترسلان نظرات فزع زائغة الى ذلك الثقب الكبير الذي يستقر في اسفل الجيب .

١٩٥٨

الخيرة

لم تكن تتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة • تلك الدور التي كانت تنتصب في نهاية الزقاق الضيق •• بابوابها المنخفضة الكبيرة التي انكفأ لونها منذ عهد بعيد ، وجدرانها التي تتسلق الفضاء في صفين غير متوازين يضعان عند السطوح فجوة مستطيلة لا تجروء أشعة الشمس ان تتخطاها الى الارض المرطبة ، منذ ان تأخذ بالارتفاع في كبد السماء الى ان تعود ثانية الى قلب الافق البعيد •

ولئن كان الزقاق يبدو في ساعات معينة من النهار سابحا في سكون عميق فانه كان في تلك الاونة اشبه بميدان صغير يتبارى في احد جوانبه اطفال يصولون ويجولون ويتعاركون ، ويتعالى في جانبه الاخر خليط عجيب من أصوات يخيل لسامعها بأنها اصوات شجار وتراشق ولكن سرعان ما يتضح بان ليس في الامر ثمة شجار او تراشق وان ذلك الخليط العجيب الذي يتعالى في أرجاء الزقاق ليس سوى جانب من أحاديث تنبعث في لحظات متقاربة من حناجر نسوة كن قد اعتدن ان يزحفن في كل يوم من داخل القوقعة التي تطبق عليهن ليتربعن على الدكات الملتصقة بابواب بيوتهن المتناثرة على جانبي الزقاق الضيق من أجل ان يرين وجه السماء ويشممن شيئا من الهوا ويمضين الوقت في احاديث قلما كان يتغير لها لون او طعم •

وكان واضحا بان صوتا واحدا من تلك الاصوات هو الذي يكاد يعلو على بقية الاصوات ويمسك باطراف الحديث ويدير دفته ، ولم يكن هذا الصوت سوى صوت أم خليل التي اشتهرت بمسبحتها التي كانت تهتز بين أصابعها طيلة ساعات النهار وما تيسر من ساعات الليل وترتفع بين الفينة والاخرى في وجوه الاخرين ايذانا بالتريث والتروي واعلانا ببدء الاستشارة والاستخارة •

وكان في ميسور المتسمع الى تلك الاحاديث ان يتبين ، بعد شيء غير كثير من الجهد والانصات ، بانها لم تعد ، كما كانت من قبل ، مقتصرة على اجترار الذكريات التي كانت تختزنها ام خليل في اعماقها وتتناول فيها من تعرف ولا تعرف من القريبين والبعيدين .. بل انها تدور في هذه الايام حول مشروع سفرة الى سلمان باك ربما يستطعن ان يضربن خلالها ، عصفورين بحجارة ويجعلنها زيارة و (تسيارة) في آن واحد .

ولم يكن هنالك شك في أن الكلمة الاولى ، في مثل هذه الاحوال والامور ، كانت لام خليل دون سواها .. ولم يكن ذلك لمجرد الرغبة في أرضائها او الاذعان لمشيئتها فحسب ، بل نزولا عند ذلك التقليد الذى يحتم على الصغار احترام الكبار .

والواقع ان دفتر النفوس الذي حصلت عليه أم خليل ، لاول مرة في حياتها ، أيام التموين ، يشير اشارة واضحة الى انها تحتل ، حقا ، المكانة الاولى من سلم الاعمار بالنسبة لجميع افراد المحلة ويثبت بانها عاشت في هذه الدربونة اكثر من سواها .

فلم يكن من المستغرب ، والحالة هذه ، ان تعرف أم خليل عن حسب ونسب كل فرد فيها أكثر مما يعرفه الاخرون وان تمر خلال تطوافها بعالم الذكريات باشخاص اوشكت ان تغيب صورهم عن الاذهان .

فتتحدث عن جواد السقاء الذي كان يحمل الماء فوق ظهر حماره الابيض من شريعة «أم النومي» ليوزعه على البيوت لقاء خط واحد يضيفه الى مجموعة الخطوط التي تعود ان يرسمها فوق الجدار المصاقب للباب ، بعصاه التي يسوق بها حماره الابيض الوديع الذي قلما كان يزعج سكان المحلة بصوته الذي جاء ذكره في القرآن .

وتروى قصصا غير مضحكة عن فرج الاعرج الذي كان يحمل عند مهبط كل مساء سلمه الخشبي الصغير الذي كان يئن ويجز كلما عمد الى تركيزه الى الجدار وتسلقه في حذر ليشعل فتيلة الفانوس الوحيد الذي كان

يرسل نورا خافتا تتبدد خيوطه في الفضاء قبل ان تقتحم جانبا من جوانب الظلمة التي تخيم على أرجاء الزقاق الصغير ، ويهتز ويلهلب كلما مرت الى جانبه نسمة هفهافة من ريح غير عاتية .

ولا تنسى أم خليل ان تتحدث احاديث غير قصيرة عن نوشه الحجامة التي لم يسلم من مبضعها المسنون واحد من سكان المحلة حتى غدت وسيلة لتخويف الاطفال كلما اقتضت ضرورة اوجد ما يستلزم ذلك .. وعندما كانت أم خليل تتحدث عن هذه المجموعة الاثرية من الذكريات التي لا تغرب عن مخيلتها وتصقل وتعيد .. وتخرج كل ما في جعبتها من اقاصيص وحكايات عن عدد من الاشخاص المعروفين وغير المعروفين بما فيهم الاباء والاجداد الذين فتحوا عيونهم واغمضوها تحت سماء هذا الزقاق وهم يروحون ويجيئون دون أن يرفعوا عيونهم الى احد .. او دون ان يكون لهم « أي لازم باحد » .. كانت أصابعها الرقيقة لا تفتأ تبعث بحبات المسبحة الواحدة منها في أثر لاخرى بينما يظل لسانها منطلقا .. يدور ويتحرك ويقذف من جوفها سيلا متدفقا من كلام لم تكن تقطع سلسلته ما لم تنشأ ثمة ضرورة تستوجب ذلك .

والضرورة التي تؤمن أم خليل بانها تستقر في القمة من قائمة الضرورات تتمثل في مشورة مسبحتها واخذ رأيها في كل عمل تريد ان تعمله هي أو يريد ان يعمله أي واحد من الذين يحيطون بها ويشاركونها الايمان بمسبحتها .

وهذه الضرورة وحدها هي التي كانت تجعل ام خليل تمسك عن الحديث ليشمل وتحوقل وتصلي على محمد وآل محمد .. وترفع رأسها الى أعلى وتطبق عينيها بخشوع وتشرع في اختيار عدد من الحبات .. وتعيد الصلوات على محمد وآله الطيبين ثم تأخذ ، بعد ذلك ، تعد تلك الحبات زوجا بعد زوج ثم تعلن بعدها النتيجة التي تخفق لها القلوب وتتعلق بها الانفاس .. تعلنها بصوت تتميز نبراته بثقة وايمان ما كان لاحد ان يستحب بهما او يقلل من قيمتهما .. لان ذلك كان يجعل من أم خليل الوديعة

مخلوقا خطرا وبرميلا على أهبة الانفجار ..

لم تكن ثقة أم خليل الغالية .. بمسبحتها وايمانها الشديد بها امرا صادرا عن عاطفة عابرة او عقيدة طارئة ذلك لان تجارب الاعوام الغابرة هي التي جعلتها تؤمن ايمانا يحتل كل بقعة من سريرتها بان من يتجرأ على الخروج على أوامر تلك المسبحة ولا يأخذ برأيها لن يسلم له ريش .. على أي حال من الاحوال .

والامثلة على ذلك ، عند أم خليل ، لايكاد يحصرها عد .. ان ذاكرتها على الرغم من تقدم السن بها ، ما زالت قوية تستطيع أن تعود بها ، بكل سهولة ، اعواما كثيرة .. الى الوراء .. لتلتقط لها صورا عديدة لا تبخل أم خليل في أن تضعها بين يدي الاخرين لعلهم يستفيدون من العبر التي تحفل بها .

فهي ما زالت تتذكر جيدا ذلك اليوم الذي خرج فيه صالح ليلحق بالجموع الهائجة في شوارع بغداد فارادت ان تحول بينه وبين ذلك لان « الخيرة طلعت موزينة » ولكن دماءه الفائرة جعلته يصك اذنيه ولا يلتفت الى توسلاتها ولا يلق بالا الى ما اشارت به سبحتها التي لم تخطىء مرة واحدة في حياتها .. واندفع يشق بصوته الثاقب اجواء السماء ويلوح بقبضته القوية في الهواء .

ثم كان ، بعد ذلك ، ما كان ..

ان صالحا لم يعد الى بيته لا في ذلك اليوم المشهود ولا في الايام التي اعقبته لانه كان أحد الذين سقطوا فوق الجسر .. جسر الشهداء وصبغوا بلاطه الرمادي ببرك متناثرة من دماء قانية حمراء .

وهي تذكر أيضا ذلك اليوم الذي منعت فيه جارتها خيرية من الذهاب الى (الزيارة) فهزت الجارة العنيدة كتفيها بعدم اكتراث ولم تتورع عن المجاهرة بالسخرية من مسبحة أم خليل .. التي طلبت منها ان تلعن الشيطان وتجلس في بيتها وتستر على نفسها .

ثم كان ، بعد ذلك ، ما كان ..

كان ان عادت الجارة العنيدة المتمردة بعد ان اقترضت اجرة السيارة التي نقلتها من كربلاء الى الكاظمية لان الصرة التي كانت تلف بها نقودها كانت قد انتقلت ، بقوة سحر خفية ، من اعماق جيبها الى مكان سيظل ، مجهولا لديها الى الابد .. اما قدماها فقد كانت تلوح في احداهما فقط .. فردة حذاء .. اما الفردة الاخرى فقد ابتلعت في ذلك الخضم من الزحام.

وهي ما زالت تتذكر ايضا تلك الكارثة التي نزلت بصبرية التي لابد ان يكون الشيطان قد وسوس لها ان تعلن هي الاخرى دون أدنى روية أو تمحيص عصيانها على المسبحة التي وضعتها ام خليل ، لوجه الله ، في خدمة الجميع .. فجعلها تركب رأسها وتصر على الذهاب الى السوق لتصوغ « جناغا » لابنها الصغير على الرغم من ان أم خليل كررت عليها القول ، مرة بعد اخرى ، بان تقلع عن ذلك في الوقت الحاضر .

لان « الخيرة طلعت موزينة » ..

ثم كان ، بعد ذلك ، ما كان ..

كان ان عادت صبرية من السوق والطفل يشكو من وعكة تبين فيما بعد انها عرض من اعراض نكسة لم تفدها كل ما وصفه المقربون من انواع الادوية والعقاقير . فلم تلبث ان تطورت .. واقترفت بمضاعفات انتهت اخر الامر بالطفل البريء الى حرمانه من الحياة .

وليس هنالك ادنى شك في أن هذه العبر لا تؤلف الا حلقات معدودات من سلسلة طويلة تستقر بمجموعها في اعماق ام خليل وتمتزج بدمائها وتضع تلك الثقة المتناهية الغالية وذلك الايمان العميق بالمسبحة وتجعل من أم خليل امرأة متزمتة لا يمكن أن تفكر ، يوما من الايام ، في التخلي عن مسبحتها والتفريط بما تشير به عليها وعلى الاخرين .. حتى ولو علقوها من شعرها بسقف الدار .

ومن أجل هذا ترى ام خليل متمسكة برأيها في وجوب الاسترشاد

بالمسبحة في أمر هذه السفرة الميمونة التي يريدون ان يقوموا بها الى سلمان باك ليضربوا خلالها عصفورين بحجارة ويجعلون منها زيارة وتسيارة في آن واحد .

ولئن كانت الاغلبية تقف الى جانب أم خليل في اصرارها على الاستئناس برأي المسبحة فان عددا من اللواتي خرجن عن طريق الايمان كن يلوين شفاههن الرقيقة المصبوغة او يرفعن اكتافهن المكشوفة استخفافا بهذا الاصرار الذي لا معنى له عندهن .. ولا مغزى مما جعل أم خليل تعلن احتجاجها الصارخ على هذا النوع من المروق .. وتقيم الدنيا وتقعدها وتنزل سيلا من اللعنات على رؤوس اولئك اللواتي يشجعن الشيطان على ان يوسوس في قلوبهن وان يدخل تحت اباطهن ـ وتحرق (ابو) المدارس والكتب والسينمات التي يعود اليها كل ما ينزل بنا من بلاء .

واوشكت ان تنفض يدها نهائيا من هذه السفرة المنحوسة لولا ان تضرعت اليها الاخريات و (توسلن بها) ان لا تحسب اى حساب لهؤلاء الراضيات عن انفسهن اللواتي لا هم لهن في الحياة غير كوى الشعر وقتل الوقت والجلوس الى التلفزيون .. والتحدث عن الممثلات والمغنيات والخروج بالنعال (ابو الاصبع) الى الاسواق .. وكان ان افلحن في اقناعها بعدم الالتفات الى ما تثيره تلك البطرانات من اقاويل واراجيف تتفق ، دون شك ، وعفولهن الصغيرة الجوفاء .. ونفوسهن التي (خربط) احوالها الشيطان .

وكان من شأن هذه المساعي الجليلة الجبارة ان استجابت أم خليل لتلك التوسلات التي وقعت من نفسها موقعا حسنا .. فشمرت عن ساعدها لتعود الى المسبحة تستشيرها من جديد في أمر هذه السفرة التي طال الاخذ والرد حولها (أكثر من اللازم) .

وداعب الاطمئنان قلب أم خليل عندما تأكد لديها ، للمرة الثالثة ، بان القيام بهذه السفرة أمر لا غبار عليه مادامت الخيرة طلعت زينة . فبدأت تعد لها العدة وتتحدث باسهاب عما يمكن ان يأخذن أو لا يأخذن

من ادوات ومعدات ومأكل ومفرش .

انها تستطيع أن تمضى الان معهن وقلبها عامر بذلك الاطمئنان الذي اشاعته فيه مسبحتها الخالدة التي لم يحدث ان اخطأت الحساب والتقدير طوال المدة التي ركنت اليها أم خليل .

والواقع ان أم خليل كانت تشعر انها احوج ما تكون الى مثل هـــذه السفرة الممتعة .. لانها ، منذ اشهر عديدة ، لم يتح لها ان تخرج من بـين جدران هذا الزقاق الضيق وان تواجه احدا من خلق الله وان ترى غير هذا الوجه من السماء الذي تعودت ان تراه كل يوم .

صحيح انها امرأة متقدمة في السن ولكنها تحس ، حتى في مثل هذه المرحلة من العمر ، بان النفس ما زالت خضراء .. وانها ينبغي ان لا تحرم نفسها ، على أي حال من الاحوال ، من الاستمتاع بمباهج الحياة واداء قسط مما عليها من واجب الزيارة .. فليس هناك من ضير اذن ان هى اشتركت مع الاخريات في هـــذه السفرة التي اعتزمت ان تجعلهـــا ممتعة .. وممتعة جدا ..

ولكن أم خليل لم يتح لها الاشتراك في الرحلة المرتقبة ولم تتيسر لها فرصة الخروج من بين جدران الزقاق الصغيرة ومواجهة احد من خلق الله ورؤية غير هذا الوجه الذي تعودت رؤيته من السماء .. كل يوم .

وقد يبدو هذا الامر غريبا .. وغريبا جدا بعد ان اتيح للمسألة ان تجتاز العقبات التي وقفت في طريقها .. وان تنال من أم خليل كل ذلك الاهتمام والتأييد ولكن هذه الغرابة لا تلبث ان تمحى وتزول اذا ما تم الوقوف على السبب الذي حال بين أم خليل وبين اشتراكها في تلك الرحلة التي اشتهتها نفسها الخضراء منذ امد بعيد .. ففي الوقت الذي كان الجميع يقفون فيه وسط الزقاق تأهبا للبدء بالرحلة .. وانتظارا لمقدم أم خليل .. كانت أم خليل تغالب ، في مواضع عدة من جسمها الاما ممضة ورضوضا حاده اوشكت ان تخلع اجزاء عديدة من مفاصلها .. كان رأسها يدور ويطن طنينا

مرعبا .. والدنيا تبدو كاشباح لا تميز تتراقص أمام عينيها اللتين كانت تهبط عليهما غشاوة من دموع وقلبها يكاد ينخلع من موضعه ليغوص ويغوص في حفرة سحيقة لا يمكن ان يحدها قرار .

لم تكن في حالة تسمح لها بتحديد ما حدث .. ولم تكن في وضع يسمح لها بالتحدث عن اللحظة الشيطانية المنحوسة التي جعلت قدمها تلتوي .. ورفعت جسمها لكي يتكور ويتخطى درج السلم هكذا مرة واحدة من اعلى درجة الى آخر درجة حيث كانت تتلوى وتستغيث وهي في حالة اعياء شديد والالم يصرخ في مفاصلها . وصدرها يعلو ويهبط بسرعة متناهية .

وعلى مبعدة يسيرة منها كانت تتناثر حبات مسبحتها الاثرية الخالدة التي لم يحدث إن اخطأت الحساب والتقدير في يوم من الايام .

١٩٦٠

فِي الفَجرِ.. يَمُوتُ المُعَذّبُون..

في البداية .. لم يستطع أحد أن يعرف سر التحول المفاجيء الذي طرأ عليها .. وتدفق سيل من الاسئلة .. مشوبا بالتعجب والاستغراب .. وليس ثمة تفسير لما حدث من تغيير .

مخالب البؤس تنغرز في وجودها بكل ضراوة .. والمجتمع ما زال يستقبلها ضحية مهملة من ضحاياه .. ومجموعة كبيرة من دلائل ضخمه تلح في الاشارة الى انها لم تكن ، كما تبدو ، واحدة من النكرات .. فشكلها مألوف للجميع .. واسمهايتردد على الالسن واهل المدينة لايوجد بينهم من لايعرفها ، وما يعرفه أهل المدينة ينحصر عن زعفرانة في كونها نموذجا فذا فريدا لمخلوقة ألفت اقسى انواع التشرد واحفلها بالمرارة .. ولكن .. احدا لم يستطع ان يعرف السر الكامن خلف ذلك التطور الذي طرأ عليها في الاونة الاخيرة .

كل ما في وجودها المتهالك المتداعي ينشق عن عالم مثقل بكل صنف نادر من أصناف التعاسة والعذاب .. تنفق ساعات النهار متوكأة على ساقين تجرجرانهما جرا .. وتدب على الارض دبيبا بلا هـدف .. ولا أمل .. تترك لنفسها حرية التنقل من مكان الى آخر دون تحديد لوجهة .. تلاحقها ، بصمت مكتوم وألم حاد ، نظرات يلذعها العطف والاشفاق تختلط أحيانا ، بصيحات سخرية نابية ـ وغمزات مشفوعة بالفاظ كانت تهزهز شيئا ما في اعماقها .. وتخرجها عن طورها المألوف وتجعل منها ، ولو لبرهة ، مخلوقة أخرى لا تعرف الوداعة ولا تمسك يدها عن الارتفاع لتقذف بالحجارة الكبيرة التي كانت تحتفظ بها دوما ، داخل علبة التنك التي تتدلى من معصم يدها اليسرى دون ان يعنيها الهدف أو تحـديده .. ودون ان تكـون جادة

في الحاق الاذى بواحد من اولئك الصبيان الذين لم تستطع ، في يوم من الايام ، ان تفهم لماذا تراودهم هذه الرغبة الشيطانية الملعونة في مشاكسة مخلوقة ضائعة ومشردة مثلها ..

ولكن شيئا قد تغير فيها الان .. في عينها يرقد هم جديد .. وهي تزداد التصاقا بالمدينة ـ تتجنب الذهاب الى اطرافها والاقتراب من الاسلاك التي تتناثر خلفها خيم يتحرك حولها الغرباء ..

ومنذ ان اصبحت مألوفة للجميع .. روءية زعفرانة وهي تعانق النسر وتتنفس البؤس والشقاء .. وتدب فوق الارض دبيبا بلا هدف .. ولا أمل اخذ سكان المدينة يقومون بمحاولات لاستقصاء كل الابعاد التي تتظافر ، بقسوة واصرار، لتصنع صرحا متكاملا لعالم متهدم تزحف داخله هذه المخلوقة التي تعيش ، بمرارة ، حياة التشرد والعذاب وتنقل في مساربه ، بلا هدف ولا أمل ، جسمها المكور المترهل الممتد بلا حدود .. ورأسها الكبير الملتف ، دوما ، بخرقة تحيط ، دون اعتناء ، بوجه ضخم كبير تجمدت على صفحته .. كل اصوات العذاب ..

وتجمعت في يد اهل المدينة .. مجموعة من خطوط كانت كافية لارصاد تطلعاتهم ووضع الاجابات لتساؤلاتهم .. وتمزيق السحب التي تختفي خلفها مأساة التشرد والضياع في حياة هذه المخلوقة التي تتنفس التعاسة والشقاء باستسلام .. وتدب فوق الارض دبيبا بلا هدف ولا أمل .. ولكن أحدا لم يتح له ان يغوص الى اعماق زعفرانة ليتعرف على ما كان يعذبها ويدفعها الى الانطواء على نفسها .. وملازمة المدينة دون الخروج الى اطرافها كما كانت تفعل من قبل . أرض المدينة .. وكأنها زعفرانة قبل اعوام .. وانذاك كانت ضمن حاشية كبيرة تلتف حول شيخ فر من ايران .. كانت تتولى اطراب أفراد الحاشية بالغناء الذي تتفوق فيه ، ولم يبق منه الان غير دمدمات خافتة تنبعث من بين شفتيها .. كئيبة مذبوحة ، كلما انفردت الى نفسها في ركن من أركان الازقة والطرقات ، وراقت في عينها هذه الحياة التي الفتها عذابا وبؤسا وتشريدا ..

ولما انفرط عقد الحاشية ، بعد وقوعه في الفخ الذي نصب له ، ادلهمت الغيوم في حياة زعفرانه وداهمتها الكابة المنحوسة .. واصابها دوار مفرح .. وعندما فتحت عينيها المرتعبتين حاولت ان تستعيد انفاسها المختنقة المبهورة .. وجدت نفسها فجأة ملقاة ، باهمال ، على رصيف مهجورمن أرصفة المدينة الوادعة . وعندما الفت الازقة والشوارع والطرقات احتضانها .. الف الناس فيها مخلوقة كل ذرة من وجودها الضائع يتحدث ، بمرارة والتياع ، عن اسطورة الالم الطاحن الذي يسحق وجودها ويصنع منه خيوطا تلتف حولها بضراوة وتشد حياتها ، بكابة ممقوتة ، الى دوامة لم تلبث ان قذفت بها الى الصفوف الاولى من قافلة التاعسين في هذه الحياة . وتعاستها في الحياة لم تكن مشوبة بالكره كما هي الان .. وكرهها الذي تلتم حوله خيوط غمها الجديد .. منصب فوق رؤوس اولئك القابعين خلف الاسلاك .

وزعفرانة لم تكن اول مخلوقة يجعل منها المجتمع شيئا مهملا كالنفايات .. لم تكن اول من يلفظها المجتمع بكل قسوة وضراوة .. ذلك أمر لايحتاج الى مزيد من توضيح .. لكن سكان المدينة ، مع ذلك ، وجدوا فيها ظاهرة تستلفت النظر وتثير الغرابة فاستقبلوها اول الامر بأفواه فاغرة .. يفوح منها الف سؤال .. دون ان يتلقى واحد منها .. جوابا . ثم .. ثم .. الفت العيون مشاهدتها وهي تشق الدروب والازقة بلا هدف .. ولا أمل .. وفوق ساقين مثقلتين تتحامل عليها كالمصلوب وترفض ان تسعفهما بعكازة .. تتلمس طريقا مجهول البداية .. مجهول النهاية .. تغرز نظراتها الباهتة في التراب .. كأنها تبحث في اعماقه مالم تستطع العثور عليه فوقه .. دون ان يبدو عليها انها تعير اهتماما لما يدور في هذا المجتمع الذي لفظها ولطخ عقلها بلوثة افقدتها التحسس بوجود شيء يمكن ان يربطها بهذه الحياة التي لم تعد تميز لها لونا أو طعما .. والسحب الداكنة تلتف حولها وتقذف بها الى قعر بحر عميق .. وتلبد حياتها .. فلا تعود تعرف الصحو والصفاء .. وتجعلها ملتصقة بالبؤس تلعقه باصطبار وتتنفس زمهريره القاتل دون ان

تفكر في التوسل باذيال الفرار .. ولا شيء .. لا شيء مطلقا يمكن ان يعسل تعاستها ويمحو لوثتها الكئيبة الهادئة .. والقابعون خلف الاسلاك هم .. هم وحدهم الذين يصلونها العذاب ، وينزلون على حياتها التاعسة ستارا كثيفا من هم جديد ، وهي تهرب منهم وتتحاشى رؤيتهم ولكنهم يفجرون في اعماقها براميل عذاب يمتزج بالكره والحقد .

ومع ان سكان المدينة لم يكلفوا انفسهم مشقة الاحاطة بكل الظروف التي انحسرت عن اصابة زعفرانة بتلك اللوثة .. الا انهم كانوا متفقين على انها تحملها معها منذ ان الفوا رؤيتها وهي تطوي الطرقات والازقة ـ مسلوبة الامل كطائر كسروا جناحه ونتفوا ريشه وألقوا به بامتهان واستكانة ، الى الطريق .. وعلى شفتيها المتشققتين تتحرك دمدمات غير مفهومة من بقايا اغنيات عتيقة .. تروي قصة عهود مضاعة .. تفعل ذلك كلما خلت الى نفسها في بقعة من الزوايا والمنعطفات التي تلجأ اليها كلما شعرت بحاجة الى ذلك .

من يدري ؟ لعل تلك اللوثة لم تكن غير هدية من الحياة وجدت نفسها مشدودة اليها وهي تدور بها وتدور ، بكل عنف وقسوة ، وتقذف بها الى هذه الحفرة المكفهرة التي تتخبط فيها وتختلط مرارتها بمذلة واستسلام .

ولم تكن لوثة زعفرانة من النوع الذى يخشى جانبه ، فهي لم تحدث عن اصابة زعفرانة بتلك اللوثة .. الا انهم كانوا متفقين على أنها لم تصب ، في يوم من الايام ، احدا بسوء .. وحجارتها الكبيرة المستقرة داخل علبة التنك ، دوما ، لم يحدث ان اصيب بها أحد يوما ولم يتفق لاحد ان شاهد زعفرانة وهى تثور وتخرج عن طورها المألوف . لكنها هذه المرة تريد أن تفعل ذلك ، واولئك المتحركون خلف الاسلاك هم الذين سيجعلونها تخرج عن طورها المألوف ، لو ان واحدا منهم حاول أن يسخر منها ، هذه المرة ، ستقذف في وجهه الحجارة الكبيرة المستقرة داخل علبة

انتك .. وخنجر الحقد يمزق قلبها ، يدمى اعصابها ، ستارا اسود فوق عينيها ..لن يكون في وسعهم ان يثيروا اعصابها . ان يمتهنوا كرامتها .ان يجعلوا منها هدفا للسخرية والعبث لن يكون في وسعهم ان يفعلوا ذلك ابدا

سكان المدينة كانوا يتحسسون بمأساة الوجود الي تعانيها زعفرانة .. كانوا يقيمون وزنا لمشاعرنا .. يتحاشون جس الاوتار الواهية التي تربطها - بالحياة - لكن الذين يتحركون حول الخيام المنتشرة خلف الاسلاك الشائكة يمعنون في التندر والسخرية .. يتجاوزون ذلك الى حدود الاذى والتنكيل .. يضيفون عذاباجديدا الى عذابها الابدي .. لكنها لن تحتمل منهم ذلك أبدا .. وحجارتها العتيدة ستتكفل بالامر ان حاولوا . ساعات النهار .. اصبحت تنفقها زعفرانة ، بصمت وسكون ، داخل ازقة المدينة ودروبها ، متنقلة من مكان الى مكان ، بصمت ثقيل وحـزن عميـق ، متحاملة فوق قدميها الحافيتين الكبيرتين .. تجرهما جرا .. محدقة في الارض بنظرات تائهة جامدة .. كأنها تبحث تحت اتربته المتعفنة عـن شيء لم تعثر عليه فوق التراب . اما الليل فتمضيه مستلقية عند بـاب دار أصحابها ، مدوا لها في ذلك اليوم ، يدهم بلقمة تتبلغ بها وتسكت صراخ أمعائها الجائعة ، لتسهر على حراستها بعين وتنـام بعين وفاء منهـا لدين حملوه اياها عندما مدوا يدا ترحم جوعها الطاوي .

لكن اشباح الغرباء تنفلت من خلف الاسلاك .. وتندفع من اعماق الخيم لتسخر وتعبث .. لتحدث الانقلاب المروع في جوف زعفرانـة .. تخلق فيها حالة غم متوترة لم تكن مألوفة من قبل .. لتجعلها تهـرب من الاخرين وتتحاشى الدنو من الجميع وتتوسل بالعزلة والانطواء وفوق وجهها قلق مدمر رهيب .. وثمة شعور في جوفها ينمو .. يدفعهـا للخروج عن طورها المألوف وتحطيم السياج الذى تحط نفسـها بـه منذ ان بدأت تتخبط في هذه الحياة الكئيبة المكفهرة .

كانت تجر نفسها فوق ارض السوق .. ومن عينيها ينسكب الالم الكئيب .. وفجأة انغرزت قدماها الحافيتان في الارض الصلبة امام حانوت صغير لحلاق أعرج كثيرا ما كان يرثي لحالها ويحدب عليها .. كانت عيناها تتسعان برعب والزبد الاصفر يتجمع حول فمها المنتفخ..واطرافها الضخمة تهتز وترتجف وانفها الكبير يضيق ويتسع ويبعث شخيرا مفزعا وفي اعماقها شيء يهدر ويزمجر ومن عينها تنطلق السنة من نار تلتهم المرآة .. فوق صفحتها تلتصق صورة يلتقي فيها القبح والبؤس والمرارة والعذاب .

كانت زعفرانة تتطلع ، بهلع كبير ، الى صورتها في المرآة ودخان الحقد يتصاعد من عينيها وكأنهما تتفتحان ، للمرة الاولى ، على حقيقة مدمرة قاتلة لم تفطن اليها من قبل ، لقد هالها ان يكون وجهها انموذجا فريدا للقبح والبؤس والمرارة والعذاب .. واحتقرت نفسها .. ودوى في اعماقها حقد عاصف يريد ان يمتد الى كل شيء .. حتى الى اولئك الغرباء القابعين خلف الاسلاك . وبسرعة مذهلة كانت يدها تتناول ، من علبة التنك ، الحجارة الكبيرة المستقرة في اعماقها وتقذفها ، بقوة شيطانية ، نحو المرآة . وقبل ان يدرك الحلاق شيئا مما يدور حوله .. استحالت المرآة الى قطع صغيرة متناثرة فوق ارض الحانوت الصغير .. والمسكين يتخبط في بحر عميق من الحيرة والذهول .. وعندما زايلهول المفاجأة كان يتساءل بوجه متلبد وعينين متوجعتين وشفتين مبتسمتين عما جعل زعفرانة تقدم على مثل هذا العمل المحزن وتختار مرآته لتكون الهدف الاول لحجارتها العتيدة . وتصلبت شرايينه وهم بالانقضاض عليها وتهشيم رأسها اللعين الذى اوحى لها بهذه الفعلة الشنيعة .. ولكن شيئا ما جعله يتخاذل ويشعر بالعجز ويكتفي بان يبعث من فمه بصقة ود لو يستطيع ابتلاعها قبل ان تفلت من بين شفتيه .

ويبدو ان الازمة التي اجتاحت زعفرانة امام حانوت الحلاق كانت

بداية تحول آخر عند زعفرانة .. فقد ازداد ميلها الى العزلة وتضاعفت رغبتها في تحاشي الناس حتى الذين كانت تحس بميل الى الدنو منهم والمكوث الى جانبهم .. وماتت فوق شفتيها الغليظتين تلك الاغنيات العتيقة التي كانت تنبعث دمدمات خفيفة مبهمة كلما خلت الى نفسها في ساعة من ساعات النهار .

وادرك سكان المدينة بان شعورا بالندم لابد ان يكون قد خامر زعفرانة لأساءتها لمخلوق قد يلتقي معها في احدى منعطفات هذا المجتمع الحافل بالمرارة والالم والعذاب .. فجعلها تتوارى عن الانظار وتبالغ في العزلة وتلوذ ، لاول مرة في الحياة باذيال الفرار . وحز ذلك .. في قلوب سكان المدينة الوادعة وحرك في قلوبهم شعورا حادا بالعطف والشفقة . واحتدمت حدة ذلك الشعور عندما علموا بان عزلتها عن الناس وابتعادها المتعمد عن المدينة ، جعلاها تختار ساعات الفجر تجوب الطرقات والازقة والشوارع بحثا ، بين اكوام النفايات ، عما يمكن ان يسكت جوعها الصارخ . ثم تحول ذلك الشعور بالعطف والشفقة الى وخزات تدمى القلوب وتجعلها تنزف دما . فزعفرانة في رحلاتها المبكرة ، فجر كل يوم ، بحثا عن شيء تقتات به ، وجدت نفسها منساقة بالرغم منها ، الى أطراف المدينة ، حيث الاسلاك الملتفة حول خيام يتحرك داخلها الغرباء ، وهي تضغط في صدرها على براميل عذاب يمتزج فيها الحقد بالكره العميق .. تود لو تبصق في تلك الوجوه العاتية وتشج بالحجارة الكبيرة رؤوسا خاوية جوفاء .

بقايا الاطعمة كانوا يلقونها اليها ، من قبل ، ملفوفة بابتسامات صفراء وكلمات غريبة لا تستطيع ان تفهم معناها .. وانقلبت الابتسامات الى غمزات ساخرة مقيتة وضحكات عابثة ممجوجة .. مصحوبة بمحاولات عندما تكررت احدثت في اعماقها مقتا شديدا وحقدا عاصفا واحدثت في طباعها تحولا ملحوظا وقذفت بها الى الانكماش والقت على وجهها الضخم ظلال من الحزن .

لم تكن تريد رؤية تلك الوجوه مرة أخرى .. لكنها منساقة ، هذه المرة ، بدافع الجوع وشعورها بالذنب يسلط عليها سياطا دامية وشبح الحلاق الكئيب يطاردها .. وسكان المدينة لم يعد في ميسورها مواجهتهم بعد ان انزلقت الى ذلك المأزق .. امام حانوت الحلاق الاعرج .

والغرباء المطلون من خلف الاسلاك ماضون في العبث والسخرية .. لايريدون ان يكفو .. وزعفرانة تمسك بأسنانها اعصابا توشك على الاحتراق .. وايديهم تقذف لها ببقايا الاطعمة .. والابتسامات الصفراء تتحول ، من جديد الى غمزات ساخرة وضحكات عابثة .. مصحوبة بمحاولات لسحب ثوبها المهفهف الطويل الى اعلى .. وزعفرانة توشك على الانفجار والخروج عن طورها المألوف .. وهم على ايقاعات عذابها المزق يصفقون ويعبثون .

وهبط ستار أحمر فوق عينيها غيّر معالم الاشياء في نظرها .

وخرجت زعفرانة عن طورها المألوف واستحالت ، في لمح البصر ، الى مخلوقة لاتعرف الوداعة عندما تكررت المحاولة وامتدت يد عابثة لواحد من الغرباء تريد أن تسحب ثوبها الى أعلى وأصوات ضحكات تافهة تشق سكون الفجر . ولم يعد في طوقها السكوت عن عبث الغرباء . وعند ما كانت تقاومهم وترمي في وجوههم سيلا من الشتائم والسباب .. وتبصق في وجه اقربهم اليها .. كانت يدها تمتد بتشنج وانفعال الى علبة التنك لتناول منها سلاحها الوحيد في هذه الحياة .. الحجارة المستقرة في اعماقها وتشج بها رأس واحد من هؤلاء الذين يمعنون في امتهانها والسخرية بها.

ان يدها المتشنجة لم تصل الى الحجارة بعد ، عندما دوت في فضاء الفجر الساجي طلقات نارية انبعثت اثرها صرخة مكتومة اعقبها سقوط جسم ثقيل فوق الارض المصاقبة للاسلاك الشائكة .. وقد امتزجت بترابها الرطب دماء قانية .. تصنع بركة كبيرة حمراء .

وانشقت صريفة قريبة عن رجل عجوز كان الفزع ينتزع صوابه وهو ينطلق نحو الجسم الذي كان يمتد ملطخا بالدم والتراب .

وعندما كانت زعفرانة تتلوى من الم قاتل وتلفظ انفاسها الاخيره بصمت وهدوء ، كان الرجل العجوز آخر من تقع عليه عيناها المفجوعتان قبل أن تنطبقا الى الابد .

وعندما كانت شمس ذلك النهار ترتفع في الافق ، كعادتها في كل يوم ، كان سكان المدينة الوادعة قد تلقوا النبأ بقلوب يمزقها الالم وعيون تسكب الالتياع .

وبعد اقل من ساعة كانت زعفرانه تستقر في اعماق حفرة شقها الرجل العجوز بيده المعروقة النحيلة على مقربة من صريفته .

وتعاقبت أيام وأيام والناس يشاهدون رجلا عجوزا في ليلة الجمعة من كل اسبوع يضع ، بيد نحيلة معروقة ، شمعة مرتجفة النور فوق بقعة يبدو انها موضع لقبر مهمل مهجور .

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ...

•••لم يعد الان في وضع يساعده على الاختيار •

كانت ثمة قوى خفية تتألب عليه ، وتدفعه في هذا الطريق • ومسح العرق المتجمع فوق وجهه ، ودفع الى الخلف برأسه وحاول أن يتطلع من بين الجموع الى الامام •

لم يكن في مقدوره ان يغالب شعور الفزع الذى يستولي عليه •• كان يحس ان ثمة نظرات تنغرز في ظهره ، وان عيونا متفتحة ترقبه بأنفعال وتتابع تصرفاته وثمة اشخاصا يراقبونه بفضول وتحفز

ومر بالمنديل فوق وجهه عدة مرات واستقرت يده فوق رقبته كأنها تريد ان تقيه من شيء مجهول يهم بالانطلاق نحوه •

وهزته دفعة قوية من الخلف فالتصق صدره بظهر امرأة عجوز كانت تقودها صبية حسناء تلمع بين حاجبيها (دكة) خضراء •• وبلع ريقه بصعوبة ، وبلع معه مجموعة الشتائم التي قدمتها له العجوز •• مقابل تلك الدفعة التي لم يكن له فيها اختيار أيضا • وقال رجل كان يزحف الى جانبه ، مع المجموع « ميخالف •• احسبها مثل امك •• » وخيل اليه ان النظرات مازالت تلاحقه ، وان الاشخاص مازالو يراقبونه بفضول وتحفز • وازداد شعوره بالخوف وود لو يستطيع الافلات من هذه الحلقة التي كان يختنق داخلها •• ود لو يستطيع ان يفعل شيئا يحرك هذه الكتلة المتباطئة ويدفع بها الى الامام • كانت الخطوات البطيئة سنابك ثقيلة تضغط صدره وتزيد من شعوره بالاختناق • لكن الازدحام كان شديدا وهو يشق طريقه ، مع الجموع ، بصعوبة •• والوهم الملعون يشق طريقه باندفاع ، الى قلبه • لعل وجودها هنا •• في هذه المدينة هو الذي يلقى الى قلبه بالرعب ••

واغتصب من شفتيه ابتسامة باهتة وهز كتفيه بامتعاض.. واحس بظمأ يوشك ان يلهب جوفه .. وتمنى لو يتناول شيئا يطفىء هذا اللهب .

.. وداست قدم ضخمة رجله ، وعندما كان يحاول انقاذها وهو يزدرد الالم .. كان صوت غليظ يهدر في أذنه بتبلد (عمي دير بالك .. أعمه ؟ خومو أعمه) واراد ان يتلفت الى الخلف .. فمنعه من ذلك شعور بالخوف .. ان شيئا ما .. شيئا ثقيلا جدا يشتد التصاقا بصدره .. كانت الرؤوس تمتد امام عينيه بلا عدد .. والاعناق تشرئب الى اعلى والاكتاف تبدو متلاصقة .. وضجيج الناس واصوات الباعة تستنفر اعصابه وتسدد ضربات محكمة الى رأسه .. وفي صدره انفاس تتردد بصعوبة بالغة .. وجسمه يتلزج فوق العرق .. وكأنه واقف في برميل مملوء بالزيت .. وشيء غامض يشده الى الخلف ويلهب احساس الخوف في اعماقه . وود لو تنقلب هذه الكتل البشرية الى بحر عميق تحتضنه امواجه وتذهب به الى مكان ليس بعيدا في هذا العالم .

وسرت في جسمه رعشة باردة ، وشد باصابعه المتشنجة على جيب بنطلونه الخاكي .. واحس بخدر يهبط من قمة كتفه الى يده .. وتراخت اصابعه وهي مازالت مستلقية فوق الجيب .

واعادته الى نفسه انتفاضة ذعر مباغتة عندما سمع صوتا جافا ينبعث من جانبه بلهجة بدت غير مألوفة لديه « وك .. جوده .. » ولم يستطع هذه المرة ، ان يمتلك زمام رأسه الذي كان قد استدار على الفور الى الخلف ، وانسكب في أعماقه ماء بارد عندما وقعت عيناه على رجل من الجنوب يعانق ، وسط الزحام ، جنديا كان يمشي الى جانبه .. واسقطت حرارة اللقاء بين الاثنين قبعة كان يمسك بها شخص يمشي أمامه .. واحس بمضاضة وهو ينحني دون اختيار ليلتقطها من الارض ويعيدها له . واعتدل بسرعة ليقول شيئا للشخص الذى ارتطم به من الخلف .. فواجهته ، على الفور ، عينان سوداوان كبيرتان .. تلتمعان بحدة مغوية في وجه امرأة . وبهلع كبير

تطلع الى الوجه الذي كان يطل عليه بتحد .. واحتبس نفسه في صدره .. وارتجفت شفتاه وهما ترسمان بقلق تمتمات مبهمة ..

وود لو كان في مقدوره ان يشق الصفوف .. ان يدوس على رؤوس هذه الجموع .. ان يصنع من هذه الاجساد المتعفنة جسرا يقفز منه الى مكان بعيد .. وداس بقدمه اذيال عباءة شيخ معمم راح ينظر بازدراء مكتوم وهو يلعن الشيطان ، ويستغفر الرحمن ، ويبعث الصلوات اثر الصلوات .. بدون حساب .. والعينان الكبيرتان تحملقان فيه باستنكار .. وتتسعان امامه ككابوس يتضخم ، وتسلطان عليه السنة من لهب تحرق كل ذرة من كيانه ، انها نفس تلكما العينين الكبيرتين .. وازداد شعوره بالهلع ، وبدأ يمسح العرق المتجمع كالزيت فوق وجهه وخلف رقبته .. وهـــو يغالب شعورا بالاختناق .

ومرة اخرى امتدت يده الى جيبه .. وفي هذه المرة احس شيئا شبيها بالخدر ينحدر من الاعلى الى اسفل ويستقر في اصابعه التي كانت ما تزال تستقر فوق الجيب باطمئنان .

وحاول ان يلتفت الى الخلف .. لكن قبضة قوية كانت تمسك برأسه وتمنعه من ذلك .. كان يخشى ان يواجه العينين الكبيرتين من جديد .. ان شيئا ما في اعماقه يتمزق . وراح يعتصر صدره بقوة .. وينتزع انفاسه انتزاعا .. واحس بشيء حاد ينغرز في ظهره .. وقفز الالم الى رأسه .. وامتلأت اذناه بطنين موحش .

قبل أكثر من نصف ساعة واجه مثل هاتين العينين الكبيرتين .. نظر فيهما كثيرا .. قرأ فيهما مايمكن ان يقرأ في كتاب ساذج بسيط .. ومسح العرق المتصبب من وجهه .. وحاول ان يشق طريقه نحو الرصيف ليشرب قدحا من اللبن .. « روبة جلاب عالگلب .. بعانه كلاص » ، واحس بشيء من الارتياح وهو يبتعد عن الزحام ويقف في زاوية غير مزدحمـــة من الرصيف ..

قبل أكثر من نصف ساعة كان يقف الى جانبها .. ينظر اليها بنهم .. يود لو يلتصق .. وهو الان يهرب منها .. يلوذ بالفرار من نظرة ترسلهما عينان بينهما وبين تلكما العينين شبه غير كبير مجرد شبه .. وهبط قلبه من جديد وسقط في هوة سحيقة ليس لها قرار .

لايدري لماذا وجد نفسه هكذا مرة واحدة فريسة لمجموعة من مشاعر واحاسيس مبهمة غريبة عندما رآها تضع قدمها في السيارة لاول مرة .. « عيني .. هاي تروح للكاظم ..؟» وغزت قلبه موجة عارمة من الشعور بالاغتباط .. كان هو الاخر يذهب الى الكاظمية .. أيضا .. « اليـــوم زيارة .. والدنيه مگلوبة » وعرف سببا للزحام ، والتمع في عينيـه بريـق خاطف ، ودق قلبه دقات سريعة متتالية ، وانزلقت شـفته السـفلى تحـت الشفة العليا .. وبلع ريقه بشدة .. ودفع بما تبقى من اللبن الى جوفـه الملتهب ، ومسح بالمنديل فمه .. كان الشارع مازال مكتظا ومائجا .. الصراخ « جلاب عالگلب .. بعانة كلاص » .. السيارة كانت مزدحمـة والاكتاف تتزاحم ، والرؤوس تتحرك ببطء ، وبائع اللبن لا يكف عن الصراخ .. والضجيج فيها كان شديدا .. وعندما وقفت الى جانبه وجد رغبة في الاقتراب منها .. وتمنى في قرارة نفسـه أن لا يتخلى لها احد مـن الركاب عن مكانه .. وخامره شعـور بالارتياح عنـدما نبه الى ان جميع المقاعد القريبة تشغلها نسوة مثلها .

وتسارعت الضربات في صدره .. واخذت خيوط كثيفة من العرق تنحدر من وجهه .. وهزه صوت يردد بحرارة « هوايه بعشر فلوس .. » وتطلع الى صورة ترتفع في يد رجل اطلق لحيته .. وشعر بقبضة قوية تعصر قلبه .. كان الوجه يستقر داخل دائرة بيضاء .. تصنع هالة من نور ... ومن دون ان يشعر ارتفعت يده الى وجهه كانها تريد ان تمسح عنه شيئا وأحس بدهليز مظلم يبتلعه ويلون كل ذرة من وجوده .. وانطلقت حسرة مخنوقة من اعماقه .. وتمنى لو يملك القدرة على تمزيق الظلام الذي

يلف حياته • واندفعت موجة محمومة من اطرافه الى قمة رأسه وازداد شعوره بالاختناق عندما كان يستقر تحت ضغط ينصب عليه من جميع الجهات ويثقل انفاسه وهو يجتاز مع الجموع المدخل المؤدي الى الصحن الكبير •• وارتفع صوت يهتف « صلوات على محمد •• » •• ولم يشترك مع الاخرين في الجواب •• لانه كان يدور في دوامة يتعالى من جوانبها نداء كان يطغي على كل احاسيسه •• ويهيب به ان لايترك الصيد يفلت من يديه •

وظل مرابطا بالقرب منها •• كان يشعر ، بادىء الامر ، بلذة في ذلك •• وثمة قشعريرة باردة كانت تنتقل في كل جزء من كيانه •• تروى قصة حرمان عنيد • وأحس بشيء من الراحة عندما اجتاز المدخل وتخلص من الضغط الذي كان يختنق تحته •• وأصبح في الساحة الكبيرة للصحن •• كان الزحام هنا أقل وطأة •• والجموع الغفيرة تبتلعها الساحة الكبرى حيث تتناثر في ارجائها جماعات وافرادا • لقد أصبح الان بعيدا عن رائحة العرق ودخان السجائر والانفاس والكريهة • وحاول ان يملأ رئتيه بالهواء ••ولكنه كان مايزال يحس بشيء ثقيل أشبه ما يكون بقدم تستقر داخل حذاء رصاصي ، فوق صدره •• واصابع يده تتلمس من جديد جيب بنطلونه الخاكي •

حقا •• كان الزحام شديدا •• هناك في السيارة ، واصوات الاطفال تختلط بثرثرة تجعل من سيارة المصلحة حماما للنساء • وهو مازال في موضعه قريبا منها •• تصطخب في اعماقه احاسيس مختلفة •• وانتفض مذعورا •• عندما شعر بشيء يرتطم برأسه ويسقط فوق وجهه •• وأمرأة تزغرد وتهتف « عرب ويهلية •• » وبكل لهفة استطاع ان يلتقط بضعة ملبسات يضع واحدة منها ، للتبرك ، في فمه • وشمل المرأة بنظرة خاطفة •• وغمره شعور بالاسى على نفسه •• ووقف يسترد انفاسه في الظل •• ويلعن الشيطان الذي دفعه الى هذا الطريق •• وتعلقت عيناه بالمئذنة الذهبية التي

كانت تتسلق الفضاء ، لتستقر عند قمتها العالية .. واكتسحه شعور مباغت بالضآلة والانخذال .. وسقط رأسه فوق صدره .. وأحس بالاختناق من جديد . كأن ثمة حبالا غليظة تلتف حول عنقه .

وزحف بصره نحو المرأة المحظوظة .. وأحس بشيء بارد بدأ يذوب في عروقه .. لم تستطع لحظات السعادة التي كانت تعيشها انذاك ان تغير شيئا ما من معالم وجهها المصفر وعينيها الغاطستين فى اطار احمر مدمع .. ونظر الى قدميها المتشققتين وثوبها الاسود الكالح والى طفلها الذي يجمع فوق وجهه الذباب ، وتمنى لو يستطيع الكشف عن سر السعادة الطارئة التي تعيشها هذه المرأة ، وهز كتفيه بامتعاض . ماذا يهمه ؟ لعل المرأة تريد ان توهم نفسها بشيء غير موجود .

ولكن هناك في السيارة كانت امرأة اخرى .. امرأة من نوع اخر .. ورأى قدمين صغيرتين تستقران في حذاء رصاصى جميل .. وطفلا يلتصق بصدر أمه .. بحنان .. وعينين كبيرتين .. وسوداوين .. واحتدم الصراع في اعماقه ، وود لو لم يكن موجودا في هذه السيارة .. لو لم يقف الى جانبها على أي حال من الاحوال .. وشعر بقلبه يغوص في حفرة عميقة وتململ شعور غامض فيصدره ، واحس بنفسه يقف فوق حافة هوة سحيقة .

واراد ان ينتزع نفسه من المكان الذي كان يقف فيه فاوشك ان يدوس طفلا صغيرا تركته امه يعبث بالبقع التي خلفها تحته وانصرفت عنه تنفث الدخان من فمها بشدة وتسند رأسها المعصوب الى يدها المعروقة السمراء وترسل بنظراتها التائهة الى الفضاء وتحرك شفتيها الذابلتين في تمتمات مبهمة متلاحقة .. وواجهت عيناه الخيوط الذهبية المنسابة من المئذنة .. وامتلكته رعشة مباغتة وأحس بشيء ما يلامس قلبه ثم ينحدر الى جوفه .. وطفل ينظر الى المئذنة كالمأخوذ ... وكأنه يراها لاول مرة .. وانبعث في قلبه شعور نابض متفتح .. وود لو يكون واحد من تلك الطيور الرمادية التي

ترفرف في القمة وتعشعش فيها • وتمنى لو يهرب من هذا العالم •• من هذه الحياة •• ليعيش هناك في القمة مع الطيور •

وبدأ يتلفت في اطرافه وكأنه يرى الناس للمرة الاولى •• وتجمدت نظراته فوق امرأة يطبق على قدميها حذاء رصاصي جميل ويلتصق بصدرها طفل اشقر صغير • وتلوى شيء متصلب في امعائه •• والصق ظهره بالجدار المرمرى قرب الكشوان •• وعيناه تزحفان خلف المرأة وهي تبتعد متجهة نحو احدى الابواب الكبيرة المؤدية الى الخارج • وامتدت يد حديدية تعصر قلبه وتدفع بنصل حاد الى جوفه • وانتفخت شرايين حنجرته وصعد شيء يغلي الى رأسه •• وسقطت يده فوق جيب بنطلونه الخاكى •• واستقرت فوقه باستسلام • وافترشت موجة من الالم واوشكت ان تمزق شرايينه •• وتمنى لو يختفي عن هذه الاعين المزروعة حوله ليختلي الى نفسه ويجترع الآمه بعيدا عن الاخرين •• واغمض عينيه ليهرب الى مكان اخر •• وساوره شعور بالتوجس •• وعندما فتح عينيه رأى ثمة سيدا يركض خلف مجموعه من النساء •• « خالة •• عدجن نذر ؟ » وداعبته واحدة منهن كانت عباءتها تنحسر بتعمد عن صدر غاضب وخصر يختنق تحت حزام اسود •• وخلفه شفتيها المتوردتين تلتمع سن ذهبية •• ودق قلبه بعنف وتمنى لو تمتد ذراعاه وتغترف كل ذرة من هذا الاغراء الذى يبحث عن منفذ للانطلاق •

وبدل موضع قدميه وهو مازال واقفا في مكانه ومرت بذهنه صورة المرأة التي تغرق في البؤس وتزغرد • والسيد مازال على مقربة منه يتصيد العابرين ويهمس في اذانهم بتوسل «عدكم نذر للامام ••» ورجل تعدى سن الشباب يترصد بنظراته المنهومة صبية تتعمد ان تبدو عابثة •

وقفز الى اذنه صوت منغم لصبي ضرير كان يقرأ القرآن • وارتعش في الظل نسيمات ندية لامست وجهه •• وأحس بنشوة غامرة تتملكه •• وارتفعت عيناه من جديد •• نحو المئذنة •• واحس بشيء يهتز في صدره وبرغبة عنيفة تتحرك فيه •

وغادر مكانه بحذر وارسل بصره ، بتردد ، عبر المكان الذي يجلس في جانبه الكشوان .. الى الداخل .. واحس بخيط رفيع ينبعث الى قلبه ويجتذبه بكل قوة .. الى الداخل .. واستولى عليه شعور بالتهيب .. وخشى ان يصفه الامام ان هو استجرأ الدخول .. وشعر بالاشمئزاز والنفور من نفسه وسقطت يده فوق جيبه وود لو يملك القدرة على تمزيق نفسه .. وانسكب في اذنيه صوت الصبي الضرير .. ولامست عيناه الخيوط الذهبية التي كانت ماتزال تنبعث من المئذنة وتتوهج تحت اشعة الشمس ..

وارتفع في اعماقه صرح شامخ لانسان جديد .. سيكون وجهه ابيض في الدنيا وفي الاخرة .. واحس تحت قدميه قوة تدفعه الى الداخل . وكان في اعماقه صوت يرتفع بالدعاء والتضرع .. وقلبه يدق بعنف وهو يقف خلف السيد ويداه تشتبكان بين رجليه .. يزدرد ريقه بصعوبة ويردد معه «والسلام عليك يا ..» وأحس بجمرة تلتصق بلسانه .. ولم يستطع اكمال الجملة .. وبلل شفتيه .. واستمع الى دقات قلبه وحاول ان يلحق بالسيد وهو ينظر الى السقف المزخرف بالزجاج .. «أأدخل يا ..» وعاوده شعوره بالتضاؤل .. وسيطر عليه احساس بالتهيب والندم .. وود لو لم يرتكب حماقة الدخول الى هذا المكان ـ محملا بالاثقال .. وتمنى لو يلوذ بالفرار حتى ينجو من هذا العذاب الذي يطارده .. لكنه خشى أن تلتهمه العيون ويستثير الشكوك . فسلم امره الى الله وحاول ان يثبت قدميه فوق قطعة المرمر الباردة . وضغط بقوة على شرايينه وحمل نفسه على اجتراع الالام التي بدأت تحز في نفسه .. واستطاع ان يردد مع السيد الدعاء ويده ترتفع مع الاخرين الى السماء « اغفر ذنوبي يا الله .. واقبل رجائي يا الله .. » وارتجفت يداه وهما مازالتا تتجهان الى أعلى .. وامتزجت لوعة متأصلة مع الدعاء وانحدرت دمعتان نحو أرنبتي انفه واهتز صوته ثم اختنق وتلفت كالمذعور خشية ان يكون امره قد افتضح .. وامتلأ رأسه بطنين موحش واطلت عليه من خلال القطع الزجاجية في السقف عينان

كبيرتان تحدقان فيه بغضب وضراوة .. وداهمه شعور بالاختناق في حنجرته .. وبدأ يتنفس بصعوبة وكأن كومة من الحشائش البرية تندفع الى جوفه.. وقذف بجسمه بين الجموع ،وهو يلهث مختنقاً، يريد ان يصل الى الشباك.. ليمسك به ويهزه بيديه هزا عنيفا .. لعل الرحمة ان تهبط عليه ، ولعل ارادة سماوية تدبر حاله وتنقذه من الحياة التي تفتح ابواب جهنم امامه .. كيف يستطيع ان يواجه ربه غدا .. في يوم الحساب، لقمة الحلال لا يوجد أحسن منها .. ولكن كيف يمكن الحصول عليها ؟.. واحتقن وجهه والتف شيء ثقيل كالمخلب حول عنقه .. وبدأ يغالب شعورا جديدا بالاختناق .

ومن خلال القضبان الفضية للضريح كان ينظر بانكسار وندم .. الى سجل اسود يروى قصة عسر تنتهي بالانحدار الى طريق محفوف .. والصق رأسه بالشباك واندفعت من أعماقه المثقلة شكوى صامتة وضراعة مخنوقة .. الحياة بلا عمل جحيم لايطاق .. والعيشة مطلوبة ، والجوع لا يرحم ، وانت أرحم الراحمين .

واطلت المرأة بعينيها الكبيرتين وطفلها يحنو على صدرها .. ويدها تمتد نحوه تريد ان تفقأ عينيه .. ان تزهق روحه .. ان تشنعه امام الخلق .. واوشكت اعصابه ان تنهار واستحال كل شيء امام عينيه الى سواد واندفع الى اذنيه صوت رفيع يهمس همسا حادا يرتج له كيانه «نشال .. مجرم » .

وتلفت حوله بذعر .. كان الصوت منبعثا من اعماقه .. لم يكن هناك من يحس بوجوده او يلتفت اليه ، وانكمش على نفسه ، وانفتحت تحت قدميه هوة عميقة تريد ان تبتلعه ، ولعن الظروف التي دفعت به الى هذا الطريق وجعلته في وضع لا يساعده على الاختيار .. والشبح المرعب يطارده والمحفظة الصغيرة مازالت تستقر في جيبه كأفعى تلدغ كل جزء من وجوده . وهز الشباك بعنف « انت تدري بحالي يالكاظم » واستجار بالائمة واحدا بعد اخر .. وانهمرت دموعه بغزارة وتحمل بصمت الضغط الذي كان

ينصب عليه من جميع الجهات • وازداد وجهه التصاقا بالشباك وهو مازال يتحمل الضغط بمضض والعينان الكبيرتان تطلان عليه بتحد وغضب تجسمان له الجرم وتضخمان شعوره بالندم • لماذا فعل ذلك معها •• مع هذه المرأة بالذات •• ان صوتا يهيب به ان يقتل نفسه •• ان يفضحها ان يقذف بها تحت اقدام هؤلاء الزوار •

رغبة ملحة تراوده في احتضانها ، في ضمها الى صدره •• في التطلع الى عينيها الكبيرتين بهدوء •• وهو يراها تصعد السيارة •• تمنى ان تكون له امرأة مثلها •• وتمثلت في ذهنه المكدود •• كل همومه التي تتكدس فوق رأسه كالركام•• والشيطان هو الذي دفعه الى ان يقدم على التطويح بقصة حرمانه •• والجوع لا يرحم •• وانت بصير بالعباد •• يا أرحم الراحمين ••

وعادت الدموع تنهمر من عينيه •• وازداد وجهه التصاقا بالشباك • وأحس بشيء من الراحة •• وزايله شعوره بالخوف والالم •• وهو ما زال يحتضن الشباك ويمسح به وجهه ، ولوى رأسه واستشفع الى الامام ان يفرجها الله عليه •• ويكتب له الرزق الحلال •• وينجيه من العذاب ويبيض وجهه في الدنيا والاخرة •• وتلفت الى جوانبه دون ان يستشعر بخوف او حذر ، هذه المرة •• كان يحس بانه تحرر من شيء كان يثقل كاهله •• ويسود الدنيا في عينيه • وتطلع الى الوجوه التي تحيط به • وقرأ فيها الايمان والورع ورأى هالات من النور تشعشع وتستفيض •• والتصق بالشباك ودعا ان يكون له ما للاخرين •• وان يدخل في عداد هؤلاء المؤمنين •

وتحامل على نفسه وهو يتلقى دفعة قوية من جانبه « ميخالف •• صلوات على محمد •• » سيكون ، هو الاخر ، واحدا كهؤلاء •• قلبه سيكون عامرا بالايمان ـ يغمره النور في كل جانب •• ولن يخرج ، من هنا •• خائباً على أى حال ـ ولن يضيع له أجر •

وداخله شعور بالخفة وهو يتناول حذاءه من الكشوان •• ماذا لو

ينقده شيئاً يدخل السرور على قلبه .. وحلمت اليه النسيمات الندية صوت الصبي الضرير .. وشملته رعشة فرح واغتباط عندما كان الصوت العذب يتأرجح مع النسيمات وهو يرددفي سحر : .. « رزقكم في السماء وما توعدون .. » ملأت قلبه الغبطة وعد ذلك فألا حسنا وساورته رغبة في منحه قطعة صغيرة من النقد .. ومنح الكشوان ايضا .. قطعة اخرى ..

وامتدت يده الى جيب بنطلونه الخاكي ـ وهو يعوذ بالرحمن ويلعن الشيطان ـ ويصلي على محمد وال محمد ..

وفجأة وقبل ان يتم الصلوات هبط قلبه واخذ يدق دقات عنيفة متسارعة .. ومادت الارض تحت قدميه واسودت الدنيا في عينيه ـ وتوقفت يده الممتدة داخل الجيب ـ ولم يعد يقوى على تحريكها ..

لم يكن للمحفظة التي كانت تستقر في جيبه .. وجود .. وأحس بشيء يتهشم في جوفه وينهار .. قبل لحظات تلمسها .. انذاك كانت : تستقر في مكانها .. وجدها تستقر في جيب بنطلونه منذ ان زين له الشيطان ان ينتشلها من تلك المرأة ذات الحذاء الرصاصي التي كانت تقف امامه في سيارة المصلحة ..

وعندما كان يغالب رغبة جنونية في العودة الى الداخل .. لينعق في تلك الوجوه التي تتصنع الايمان والورع والتقوى ـ كانت اذناه تتلقفان ، من المنعطف الذى يقف بجواره صوتا يتفجر بالالم .. لامرأة تستنزل اللعنات على رأس ابن الحرام الذى امتدت يده المقطوعة ونشلت محفظة نقودهـا وتدعو بحرقة وهي تضرب صدرها بيدها ان لا يرى الخير في حياته ولا يتهنأ بشبابه وان يشتعل بنار الدنيا قبل نار الآخرة .

« ١٩٦١ »

المحتوى

الصفحة

عمّو غفوري ١
غداً .. تتمّ المعجزة ١١
من أجل الآخرين ٢٣
الخيط الأخير ٣٧
رجل .. وامرأة .. وفراغ ٥١
الثقب الكبير ٦١
الخيرة ٧٣
في الفجر .. يموت المعذبون ٨٣
رزقكم في السماء ٩٥

وزارة الثقافة والإعلام
مديرية الثقافة العامة

صدرت عن مديرية التأليف والترجمة والنشر القصص والمسرحيات التاليـة :

	فلس
١ ـ الظامئـون : تأليف عبدالرزاق المطلبي	٢٥٠
٢ـ عمان لن تموت تأليف عبدالوهاب النعيمي	١٠٠
٣ ـ من مناهل الحياة تأليف الياس قنصل	١٥٠
٤ ـ رماد الليل تأليف عامر رشيد السامرائي	١٥٠
٥ ـ الهارب تأليف شاكر جابر	١٠٠
٦ ـ خارج من الجحيم تأليف صادق راجي	١٢٠
٧ ـ عندما تكون الحياة رخيصة تأليف ادمون صبري	١٢٠
٨ ـ الرحيل تأليف خضير عبدالامير	١٠٠

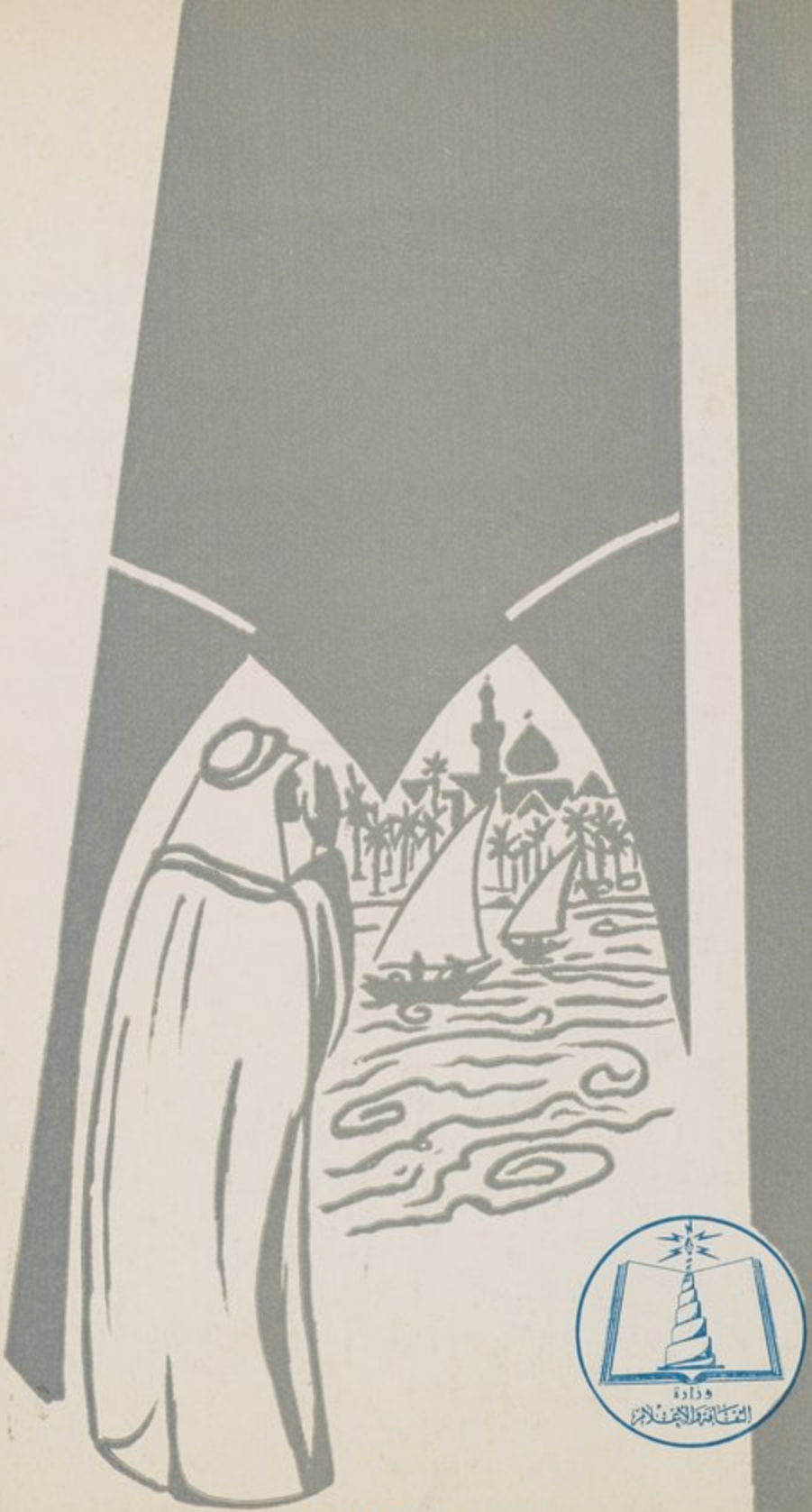

ثمن النسخة ١٢٠ فلسا